الجزء السادس

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

السيرة النبوية ﷺ

٦

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر
بين أُحد والخندق

١- مواقف للصحابة بعد أحد في الرد على المنافقين واليهود -

قال الواقدي في سياق رواية له : ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة عند نَكْبَة قد أصابت أصحابه ، وأُصيب رسول الله ﷺ في نفسه . فجعل ابن أُبَيّ والمنافقون معه يَشمَتون ويُسَرُّون بما أصابهم ويُظهرون أقبح القول . ورجع من رجع من أصحابه وعامّتهم جريحٌ ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ وهو جريح ، فبات يكوي الجراحة بالنار حتى ذهب الليل ، وجعل أبوه يقول : ما كا ن خروجك معه إلى هذا الوجه بر أي! عصاني محمّد و أطاع الولدان ، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا . فقال ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خيرٌ .

وأظهرت اليهود القولَ السَّيِّئ فقالوا : ما محمّد إلا طالبُ مُلْك ، ما أُصيب هكذا نبيٌّ قطُّ ، أُصيب في بدنه وأُصيب في أصحابه ! وجعل المنافقون يُخذّلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ويأمرونهم بالتفرّق عن رسول الله ﷺ ، وجعل المنافقون يقولون لأصحاب رسول الله ﷺ : لو كان مَن قُتل منكم عندنا ما قُتل . حتى سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك من اليهود والمنافقين . فقال رسول الله ﷺ ، ياعمر . إن الله مُظهر دينه ومُعزّ نبيّه ، ولليهود ذمّةٌ فلا أقتلُهم . قال : فهؤلاء المنافقون يارسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قال : بلى يارسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوّذًا من السيف ، فقد بان لهم أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النَّكبَة . فقال رسول الله ﷺ : نُهيتُ عن قتل من قال لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا

رسول الله . يا ابن الخطاب . إنَّ قُرَيشًا لن ينالوا منَّا مثل هذا اليوم حتى نستلم الرُّكْن [1] .

في هذا الخبر أمثلة مما صدر من المنافقين واليهود من الشماتة بالمسلمين في مصابهم بأحد ، فقد أظهر عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول نفاقه في تحسير المسلمين وتوهين رأيهم حينما خرجوا لقتال عدوهم والتَّبَجُّح بترديد رأيه الذي أبداه قبل المعركة حيث أشار بعدم الخروج ، ولكن ابنه عبد الله رضي الله عنه رد عليه رد المؤمن التقي الذي يكل الأمور كلها إلى الله تعالى حيث أبان لأبيه أن ما أصاب المسلمين إنما هو بقضاء الله تعالى وقدره ، والمؤمن الحق يرضى بقضاء الله تعالى وقدره ويصبر على بلائه ، وبذلك أسكت أباه الذي لايستطيع أن يحاوره في هذا المنهج الذي لايتصوره على الحقيقة لأنه لايؤمن به بقلبه ولايستطيع أن يظهر كفره بذلك لأنه قد ارتضى النفاق منهجًا له في الحياة .

ونجد في هذا الخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسوؤه ما يسمع من المنافقين واليهود من نفَثَات الحقد والضغينة وعبارات التَّشفِّي من المؤمنين فيمشي إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في قتل من سمع منهم ذلك الكلام السيء ، ولكن النبي ﷺ يبين له أن الله تعالى مظهر دينه ومعزٌّ نبيه ولو كره ذلك اليهود والمنافقون وأظهروا عداءهم بالحرب النفسية التي يتقنها الجبناء عادة ويرون فيها عزاء لأنفسهم المريضة من تخلفهم عن الجهاد الذي يعشقه الرجال الأبطال .

كما أبان له أن لليهود ذمة وأنه لايجوز نقض العهد إلا إذا بدر منهم

---

(1) مغازي الواقدي ١/ ٣١٧ - ٣١٨ .

العداء الحربي ، وأن المنافقين قد أظهروا الإسلام وأن الله تعالى نهاه عن قتل من نطق بالشهادتين .

ونظرًا لكون المؤمنين الصادقين - ومنهم عمر - يَحُزُّ في نفوسهم أن يروا الكفار من اليهود والمنافقين يسرحون ويمرحون في المدينة ويأخذون حريتهم في الكلام الذي يسوء المؤمنين ، مع ما أصابهم به أعداؤهم من كفار مكة فإن النبي ﷺ بشَّر عمر ببشرى تَطْمئن لها قلوب المؤمنين حيث أفاده بأن كفار مكة لن ينالوا من المسلمين مثل ما نالوا ذلك اليوم ، وأن الله تعالى سيفتح لهم مكة وستنتهي دولة الكفار فيها ، فكأن النبي ﷺ أراد أن يقول لعمر أبشر فإن المنافقين واليهود لن يفرحوا علينا ولن يشمتوا بنا بعد اليوم لأننا لن نصاب بمثل ما أُصبنا به في أحد .

وهكذا يضع رسول الله الأمور مواضعها فلا يستجيب لطلب عمر لَمّا يترتب عليه من نتائج سيئة على المسلمين في المستقبل ، ولكنه في نفس الوقت لايتركه في تأجج نفسي واضطراب فكري ، بل يُعزِّيه ويواسيه- هو وأصحابه - بما يرفع من نفوسهم شبح تكرر المأساة وتكرر شماتة الأعداء ، وكونها إصابة واحدة وتنتهي وينتهي معها تشفِّي الأعداء يُسلِّي النفوس ويقوي فيها الصبر والتهوين من شأن الأعداء في حروبهم القتالية والنفسية .

* * *

٢- مواقف الرسول ﷺ وأصحابه
في غزوة حمراء الأسد -

قال ابن إسحاق : وكان يوم أُحد يوم السّبت للنِّصف من شوال قال : فلما كان الغد من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلة مضت من شوّال أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدوّ ، فأذَّنَ مؤذّنه أن لايخرجنَّ معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضرَ يومنا بالأمس .

فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرَام ، فقال يارسول الله ، إنّ أبي كان خَلّفني على أخوات لي سبْع ، وقال : يابُنيّ ، إنه لاينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النِّسوة لا رَجل فيهنّ ، ولستُ بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي فتخلّف على أخواتك فتخلفتُ عليهن فأذن له رسول الله ﷺ فخَرج معه .

وإنما خرج رسولُ الله ﷺ مُرْهبًا للعدوّ ، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ، ليظنوا به قوة ، وأن الذي أصابهم لم يُوهنْهم عن عدوهم .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبدُ الله بن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان : أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ، من بني عبد الأشهل ، كان شهد أُحداً مع رسول الله ﷺ ، قال : شهدتُ أحدًا مع رسول الله ﷺ ، أنا وأخ لي ، فرَجعنا جَريحين ، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدوّ ، قلت لأخي أو قال لي : أتفوتُنا غَزوةٌ مع رسول الله ﷺ ؟ والله مالنا من دابة نركبها ، وما منَّا إلا جَريح ثَقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسَر جُرحًا

منه ، فكان إذا غُلب حملته عُقبة ، ومشى عُقبةً ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

قال ابن إسحاق : فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حَمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال[1] ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة .

قال : وقد مَرّ به - كما حدثني عبد الله بن أبي بكر - معبدُ بن أبي مَعْبد الخزاعي ، وكانت خُزاعة مُسلمهم ومُشركهم عَيْبةَ[2] نُصح لرسول الله ﷺ ، بتهامة ، صفقتهم معه ، لايخفون عنه شيئًا كان بها ، ومَعبد يومئذ مُشرك ، فقال : يامحمد ، أما والله لقد عَزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم .

ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوْحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حَدّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لَنكُرَّن على بقيتهم ، فلنفرغن منهم . فلما رأى أبو سفيان معبدًا ، قال ما وراءك يامعبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قطُّ ، يتحرقون عليكم تحرُّقًا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحَنق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال : ويحك ! ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترْتحل حتى ترى

---

(١) قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

(٢) عيبة الرجل موضع سره .

نواصي الخَيْل ، قال : فو الله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم ، لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، قال : والله لقد حَملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيهم أبياتاً من شعر ، قال : وماقلت ؟ قال : قلت :

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي | إذ سالت الأرضُ بالجرد الأبابيل[١]
تردى بأسد كرام لا تنابلة | عند اللقاء ولاميل مَعازيل[٢]
فظلتُ عَدْوًا أظنّ الأرض مائلة | لَمَّا سَمَوا برَئيس غير مخذول[٣]
فقلتُ : ويل ابن حَرْب من لقائكم | إذا تَغَطمطت[٤] البطحاء بالجيل
إني نذير لأهل البَسْل صاحيةً | لكل ذي إربة منهم ومعقول[٥]
من جيش أحمد لاوَخْش[٦] تنابلة | وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقيل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

ومر به ركبٌ من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ؟ قال : ولمَ ؟ قالوا : نُريد الميرة[٧] ، قال : فهل أنتم مُبْلغون عني

(١) تهد يعني تخر وتسقط والجرد جمع أجرد وهو السبَّاق من الخيل والأبابيل يعني الجماعات .
(٢) تردى أي تجرى وترجم الأرض بحوافرها والتنابل جمع تنبل وهو البليد الكسلان والميل جمع أميل وهو الجبان والمعازيل جمع معزال وهو الضعيف الأحمق .
(٣) يعني فظللت أسرع الهروب من وجه هذا الجيش الذي كادت تميد الأرض من كثرته لما علوا برئيس موفق مظفر يعني به النبي صلى الله عليه وسلم .
(٤) أي اضطربت .
(٥) النذير من يعلم بشيء مخوف وأهل البَسْل يعني أهل الحرم وهم قريش والإربة الدهاء والحيلة .
(٦) الوخش رذال الناس وأسقاطهم ويستعمل مع المفرد والجمع بلفظ واحد .
(٧) الميرة الطعام الذي يدخره الإنسان ، وهذه التوضيحات عن هامش السيرة .

محمدًا رسالة أرْسلكم بها إليه ، وأُحمِّل لكم هذه غدًا زبيبا بعكاظ إذا وافيتُموها ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتُموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل[1] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولًا : اهتمام النبي ﷺ بالخروج لملاحقة العدو بعد المعركة بيوم واحد مع مابه وبأصحابه من جراح بليغة يدل على بُعْد نظر وحكمة في وضع الخطط الحربية وإدراك عميق لأثر الحرب النفسية ، فإن الهدف من خروجه إرهاب أعدائه من أهل مكة وجميع الأعداء المحيطين بالمدينة مَنْ قرُب أو بَعُد ، وذلك لأن إصابة المسلمين في معركة أحد قد حطّت من سمعتهم الحربية لدى قريش والقبائل الأخرى ، وتعالت احتمالات الطمع بغزو المدينة ، فأراد النبي ﷺ أن يظهر للأعداء جميعا أن إصابة أحُد لم تكن نتيجة ضعف في المسلمين ولاتخاذل وإنما هي نتيجة خطأ حربي ارتكبه بعض الجنود ، وقد عاد جنود الإسلام بقيادة نبيهم ﷺ إلى ملاحقة الجيش الذي أصابهم على ضخامته فكيف الحال بجيوش القبائل الصغيرة لو فكرت بغزو المدينة ؟ ! .

ولقد حدث ما فكَّر به النبي ﷺ وخطَّط لتفاديه ، حيث إن جيش

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٩ - ٦٣ .

وأخرج خبر هذه الغزوة مختصرا الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٧٧ (الفتح ٧/ ٣٧٣) .

قريش قد ندموا على اكتفائهم بإصابة المسلمين وعدم قيامهم باستئصالهم ففكروا بالعودة إلى المدينة واستئناف الحرب مرة أخرى كما جاء في هذه الروايات لولا ما بلغهم من خروج النبي ﷺ بجيشه إلى حمراء الأسد لملاحقتهم فعلموا بذلك أن قوة المسلمين ماتزال حية وأن الجراح لم تكن عائقا لهم عن الخروج .

إن أي فكر بشري يتصور موقف المسلمين آنذاك وقد أحاط بهم الأعداء من الداخل والخارج سيصيبه الهلع والرعب والخوف على مستقبل هذه الفئة المؤمنة ، ولن يستطيع أي فرد مهما كان في قوته ودهائه أن يتحمل مسئولية تلك الفئة المحاربة من كل جانب، أما الرسول ﷺ فإنه لم يَهُنْ في مواجهة تلك الظروف القاهرة ، ولم تَلنْ له قناة أمامها ، لأنه مؤيد بنصر الله وقد وعده الله إتمام هذا الأمر مهما تكالب عليه الأعداء ، ولن يخلف الله وعده ، والرسول ﷺ على ثقة من أن الله تعالى سينجز له ما وعد ، فلم يضعف أمام تلك الظروف القاسية بل واجهها جميعا بقوة وحزم حيث قام بإرهاب أعدائه جميعا من أهل المدينة ومن حولها والبعيدين منها حينما مضى يتعقب جيش الكفار حتى بلغ حمراء الأسد.

وقد قامت هذه الحملة بدورها المؤثر في إرهاب أعداء الإسلام من أهل المدينة ومن حولها حيث عرفوا أنه ليس من السهل القضاء على المؤمنين ولاتفريقهم عن رسول الله ﷺ وقد استجابوا لدعوته إلى الجهاد مع ما بهم من الجراح المؤلمة .

أما أثر هذه الحملة على كفار قريش فقد ظهر في تصرفات أبي سفيان قائد جيشهم حيث استأجر جماعة ليخذّلوا رسول الله ﷺ عنه لما علم بخروجه كما جاء في هذا الخبر .

ثانيًا : في هذا الخبر مثل من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وسعيهم الجاد في تذليل الصعوبات التي تعوقهم عن الخروج ، فمن ذلك خبر الأنصاري الأشهلي وأخيه اللذين خرجا مع شدة ما أصابهما من الجراح حتى كان أحدهما وهو جريح يحمل أخاه الذي كان أشد مصابا منه ولم يعتبر تلك الجراح مسوغا للقعود ، وعلى شاكلتهما كثير من الصحابة ، وقد أثنى الله سبحانه عليهم بذلك بقوله ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٢]

ثالثًا : ما جرى من معبد الخزاعي من تخذيل المشركين عن رسول الله ﷺ فيه عبرة عظيمة ، فقد قيَّظه الله تعالى ليقوم بدور مهم في نصر المسلمين حيث ضخَّم جيشهم في عين أبي سفيان وصدَّه عن العودة إلى المدينة بأسلوب قوي مؤثر ، ولقد صدقه أبو سفيان لكونه مايزال مشركًا .

وهكذا ينصر الله تعالى أولياءه بجنود كثيرة منها المعتدلون من الكفار الذين كانوا معجبين بسلوك المسلمين في السلم والحرب .

والحقيقة أن أبا سفيان وقومه كانوا مترددين في أمر العودة إلى المدينة ، يدفعهم حب القضاء على الإسلام وأهله ، ويَرْدَعُهم خشية الوقوع في الهزيمة والأسر على يد المسلمين ، خصوصًا وأنهم يدركون بأن ما أصاب المسلمين لم يكن عن ضعف ولا جُبْن وإنما هو بسبب خطأ ارتكبه بعض جنود الإسلام ، وهم يعلمون جيدا أن الأخطاء لا تتكرر غالبًا خاصة من المسلمين الذين جربوا تفوقهم في التخطيط الحربي وفي القتال في بدر وفي أول النهار يوم أحد ، ولذلك ما أن حذرهم معبد

الخزاعي من جيش المسلمين حتى غلَّبوا جانب السلامة والحفاظ على النصر الذي توهموه .

رابعًا : حينما مرَّ ركب من عبد القيس بأبي سفيان وقومه استأجرهم أبو سفيان ليُخذِّلوا المسلمين ويرهبوهم ، فمر الركب برسول الله ﷺ والمسلمين وهم بحمراء الأسد فأبلغوهم رسالة أبي سفيان وأصحابه فما كان جواب رسول الله ﷺ إلا أن قال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وهذا الجواب يدل على صدق التوكل وعمق اليقين ورسوخ الإيمان ، وقد عبر النبي ﷺ بهذا الجواب عن شعور الصحابة رضي الله عنهم الذين لم يخرجوا وهم على تلك الحال إلا ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه ، وقد أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ والمؤمنين في هذا الموقف بقوله ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [**آل عمران** : ١٧٣] .

* * *

٣ – مثل من نفاق ابن أُبَيّ ومواقف لبعض الأنصار –

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : فكان لعبد الله بن أُبَيّ مقام يقومه كلّ جمعة شرفًا له لايُريد تركه . فلما رجع رسول الله ﷺ من أُحُد إلى المدينة جلس على المنبر يوم جمعة ، فقام ابن أُبي فقال : هذا رسول الله ﷺ بين أظهُركم ، قد أكرمكم الله به ، انصروه وأطيعوه . فلما صنع بأُحُد ما صنع قام ليفعل ذلك . فقام إليه المسلمون فقالوا : اجلس ياعدوّ الله ! وقام إليه أبو أيوب وعُبادة بن الصامت ، وكان أشد من كان عليه ممّن حضر ، ولم يقم إليه أحدٌ من المهاجرين . فجعل أبو أيوب يأخذ بلحيته ، وعُبادة بن الصامت يدفع في رقبته ، ويقولان له : لست لهذا المقام بأهل ! فخرج بعد ما أرسلاه ، وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول : كأنما قلت هُجْرًا[١] ، قمت لأشدّ أمره ! فلقيه مُعَوِّذ بن عَفراء فقال : مالك ؟ قال : قمت ذلك المقام آلذي كنت أقوم أولاً ، فقام إليّ رجالٌ من قومي ، فكان أشدهم علي عُبادة ، وخالد بن زيد . فقال له : ارجع فيستغفر لك رسول الله . فقال : والله ما أبغي يستغفر لي . فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ .. ﴾[٢] الآية . قال : ولكأني أنظر إلى ابنه جالسٌ في الناس ، مايشدّ الطَّرْف إليه ، فجعل يقول : أخرجني محمد من مربَد سَهل وسُهَيل[٣] .

---

(١) أي قبيحا من الكلام .

(٢) تكملتها ﴿ لَوَّوا رؤوسهم ورأيتهم يَصُدُّون وهم مستكبرون ﴾ – المنافقون / ٥– وهذه السورة نزلت بعد ذلك عقب غزوة بني المصطلق كما سيأتي ، فيحتمل تكرر نزول الآية .

(٣) مغازي الواقدي ١/ ٣١٨ – ٣١٩ .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث الإمام الزهري وذكره نحوه – سيرة ابن هشام ١/ ٦٤–٦٥–

والمربد هو المكان الذي يجفف فيه التمر .

في هذا الخبر صورة من صور النفاق التي كان عبد الله بن أُبَيّ وجماعته من المنافقين يجيدونها ويتظاهرون بها .

وقد كانوا جميعًا يؤدون تكاليف الإسلام الظاهرة كالصلاة ويحرصون على أدائها في المسجد أحيانا ليراهم المؤمنون ، ولقد كان هذا الأمر محتملا منهم لأن تلك الأمور واجبات ظاهرة لابد أن يؤدوها وإلا اتهموا في دينهم ، أما أن يتحولوا من مرحلة الالتزام الشخصي إلى مرحلة الدعوة إلى الإسلام فهذا ما أنكره بشدة على ابن أُبَيّ جماعته من الأنصار وقد حصل منه ما حصل يوم أحد .

ولقد كان موقفا مشكورا من أبي أيوب خالد بن زيد وعبادة بن الصامت الأنصاريين ومن كان معهما من الأنصار حيث أسكتوا ابن أبي وجروه وأخرجوه من المسجد بقوة ، وأبانوا له بأنه ليس بأهل أن يصل إلى مرتبة الدعاة وقد جرى منه ما جرى .

وهذا يدل على براءة الأنصار رضي الله عنهم من الولاء لأعداء الإسلام وإن كانوا من قبائلهم وهذا من كمال إيمانهم ورسوخ يقينهم رضي الله عنهم .

ونجد في نهاية الخبر مثلا من حقد المنافقين على الإسلام ومشاعره العظيمة حيث يقول ابن أُبيّ « أخرجني محمد من مربد سهل وسهيل» ولم يقل من المسجد لأنه لايعترف بالمسجد ويتمنى زواله ليعود مكانه مربدا كما كان .

* * *

٤ – مواقف في سرية أبي سلمة إلى بني أسد –

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه بعد أن ذكر خبر إصابة أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه بجرح في أحد : فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من الهجرة ، دعاه رسول الله ﷺ فقال : اخرج في هذه السَّرية فقد استعملتك عليها . وعقد له لواءً وقال : سِرْ حتى تَرد أرض بني أسد ، فأغِرْ عليهم قبل أن تلاقَى عليك جُموعهم . وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ، فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة .

وقد ذكر أسماء بعض البارزين منهم إلى أن قال : والذي هاجه أنَّ رجلاً من طَيِّئ قدم المدينة يُريد امرأة ذات رحم به من طيء متزوجةً رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ (١) ، فنزل على صهره الذي هو من أصحاب رسول الله فأخبره أن طُليحة وسَلَمَة ابني خُوَيلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدَعْوتهما إلى حرب رسول الله ﷺ يُريدون أن يدنوا للمدينة ، وقالوا : نسير إلى محمد في عُقْر داره ، ونصيب من أطرافه ، فإنَّ لهم سرْحًا يرعى جوانب المدينة ، ونخرج على متون الخيل ، فقد أربعنا (٢) خيلنا ، ونخرج على النجائب المخبورة(٣)، فإن

(١) جاء في رواية أخرى للواقدي أن اسم الرجل الطائي الوليد بن زهير بن طريف وأن صهره الصحابي هو طليب بن عمير ، وطليب هو بن عمير بن وهب بن عبد بن قصي القرشي -أسد الغابة ٣/ ٦٥ - .

وذكر خبر هذه السرية الحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير من طريق الواقدي - تاريخ الإسلام/ المغازي / ٢٢٩ ، البداية والنهاية ٤/ ٦٣ - ٦٤- .

(٢) أي رعيناها في الربيع حتى قويت .

(٣) أي على الإبل التي خبرنا جودتها وسرعتها .

أصبنا نهبًا لم نُدرك ، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عُدتها ، معنا خيلٌ ولاخيل معهم ، ومعنا نجائبُ أمثال الخيل ، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قُريش حديثًا ، فهم لايستبلّون دهرًا، ولايثوب لهم جمعٌ .

فقام فيهم رجلٌ منهم يقال له قيس بن الحارث بن عُمير ، فقال : ياقوم ، والله ما هذا برأي ! مالنا قبَلَهم وَتْرٌ وماهم نُهبةُ لُمنتهب ، إنَّ دارنا لبعيدة من يثرب وما لنا جمعٌ كجمع قُريش . مكثت قُريش دهرًا تسير في العرب تستنصرها ولهم وترٌ يطلبونه ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل وقادوا الخيل وحملوا السلاح مع العدد الكثير - ثلاثة آلاف مُقاتل سوى أتباعهم- وإنما جُهدكم أن تخرجوا في ثلاثمائة رجل إن كَمُلوا ، فتُغرِّرون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم ، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم . فكاد ذلك أن يُشككهم في المسير ، وهم على ماهم عليه بعدُ .

فخرج به الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فأخبره ما أخبر الرجل ، فبعث رسول الله ﷺ أبا سَلَمة ، فخرج في أصحابه وخرج معه الطائيّ دليلاً فأغذّوا (١) السير ، ونكَّب بهم عن سَنَن الطريق ، وعارض الطريق وسار بهم ليلاً ونهارًا ، فسبقوا الأخبار وانتهوا إلى أدنى قَطَن - ماء من مياه بني أسَد ، هو الذي كان عليه جمعهم- فيجدون سَرْحًا فأغاروا على سَرْحهم فضمّوه ، وأخذوا رعاءً لهم مماليك ثلاثة . وأفلت سائرهم فجاءُوا جمعهم فخبروهم الخبر وحذروهم جمع أبي سلمة . وكثروه عندهم فتفرق الجمع في كل وجه . وورد أبو سَلَمَة الماء فيجد الجمع قد تفرق ، فعسكر وفرق أصحابه في

(١) أي أسرعوا .

طلب النَّعَم والشاء . فجعلهم ثلاث فرق - فرقةٌ أقامت معه . وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتى . وأوعز إليهما ألاَّ يمعنوا في طلب وألاَّ يبيتوا إلاَّ عنده إن سَلموا ، وأمرهم ألا يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم . فآبوا إليه جميعًا سالمين ، قد أصابوا إبلاً وشاءً ولم يَلقوا أحدًا ، فانحدر أبو سَلَمة بذلك كله إلى المدينة راجعًا ، ورجع معه الطائي ، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقتسموا غنائمكم . فأعطى أبو سَلَمَة الطائي الدَّليل رضاه من المَغْنَم ، ثم أخرج صَفيًا لرسول الله ﷺ عبدًا ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما بقي بين أصحابه فعرفوا سُهمانهم ، ثم أقبلوا بالنَّعَم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : مجيء ذلك الرجل الطائي زهير بن طريف وإخباره طليب بن عمير رضي الله عنه بخبر بني أسد فيه عبرة ، حيث قدر الله قدومه إلى المدينة في الوقت المناسب ونزوله على ذلك الصحابي وإخباره بالخبر وهذا من تسخير الله تعالى لأوليائه المؤمنين .

ثانيًا : موقف لذلك الصحابي طليب بن عمير رضي الله عنه حيث أسرع بإخبار النبي ﷺ بخبر بني أسد ، وهذا دليل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعيشون مع قضايا أمتهم ويبذلون جهدهم في حل تلك القضايا ، وهذا من الوعي الفكري عند الصحابة رضي الله عنهم في واقعهم وواقع اعدائهم .

ثالثًا : اهتمام النبي ﷺ بإرسال تلك السرية إلى بني أسد ليباغتهم

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٣٤١ - ٣٤٣ .

قبل أن يجتمعوا ويكون لهم جيش كبير وهذا يدل على الدقة في التخطيط الحربي ، وقد حصل ما أراده النبي حيث أدركهم أبو سلمة قبل أن يجتمعوا فذُهلوا من وصول المسلمين إليهم وهم يظنون أن وقعة أحد قد قضت عليهم فأصيبوا بالرعب من المسلمين وعدلوا عن عزمهم على غزو المدينة .

وبنو أسد لم يستفيدوا من درس غزوة حمراء الأسد التي أراد بها الرسول ﷺ إرهاب أعدائه جميعًا وإظهار المسلمين بمظهر القوة ، فجاءت هذه السرية لتُلَقِّن بني أسد درسًا لن ينسوه ، أما بقية الأعداء وعلى رأسهم أهل مكة فإنهم قد وعوا الدرس جيداً فلم يتجرؤوا على غزو المدينة .

رابعًا : خروج هذه السرية إلى أرض بعيدة من المدينة وإقدام أصحابها على غزو قوم في بلادهم يعتبر نوعا من الفدائية ، وقد ضمَّت عددًا من وجوه المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، وإذا تذكرنا أن بلاد بني أسد مجاورة لقبيلة غطفان الكبيرة القوية فإن مجرد الإقدام على غزو تلك القبيلة في عقر دارها يعتبر مغامرة جريئة .

إن الذي يشارك في مثل هذا الخروج لايؤمِّل في أن يعود سالما غانما وإنما الذي يغلب على ظنه أن يظفر بالشهادة ، ولهذا الهدف النبيل كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون في الخروج إلى الجهاد ويُغلِّبون جانب الدخول في مواطن الهلاك والخطر ، كما مر علينا في تحمسهم للخروج إلى الأعداء يوم أحد ، ولهذا فإن الناظر في هذه السرية الذي

يريد أن يقدر مواقف أصحابها لاينبغي له أن ينظر إلى نهايتها ونتائجها ، وإنما ينبغي له أن ينظر إلى ا حتمال أن يكون بنو أسد قد علموا بالمسلمين منذ خروجهم من المدينة فسارعوا في جمع الجموع لهم بالمستوى الذي كانوا يريدون به غزو المدينة ، ثم يقدر جسامة الموقف وعظم الخطر على المسلمين الذين سيواجهون - وهم مشاة - أضعافهم من الأعداء الذين يملكون الخيل ، فعند ذلك تظهر للمتأمل عظمة المسلمين وبطولتهم الخارقة .

خامسًا : في هذا الخبر مثل من تفوق المسلمين في الرصد الحربي والدقة في التوقيت حيث استطاع أصحاب هذه السرية أن يصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بُعْد المسافة ، ولقد كان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية .

إن مجرد شعور الأعداء بمقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلئون رعبا منهم ويتوقعون منهم الإغارة في أي وقت ، وهذا الشعور يحملهم على الاعتراف بقوة المسلمين ومسالمتهم .

* * *

٥ - سياسة حازمة وفدائية نادره -
(خبر ابن أنَيْس مع خالد الهذلي)

أخرج الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق قال : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه قال : دعاني رسول الله ﷺ فقال : إنه بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني ، وهو بعرنة[١] فَأْته فاقتله ، قال : قلت : يارسول الله انعته لي حتى أعرفه ، قال إذا رأيته وجدت له قشعريره [٢] .

قال : فخرجت متوشحًا بسيفي ، حتى وقعْت عليه وهو بعرنة مع ظُعْن [٣] يرتاد لهن منزلا وحين كان وقت العصر ، فلما رأيته وجدت ماوصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة ، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه مجاولة [٤] تشغلني عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي للركوع والسجود .

فلما انتهيت إليه قال : من الرجل ؟ قلت : رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا ، قال : أجل أنا في ذلك ، قال : فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبَّات عليه .

---

(١) هو الوادي المشهور بعرفة .

(٢) جاء في رواية الواقدي « وكنت لا أهاب الرجال فقلت : يارسول الله ما فَرِقْتُ من شيء قط ، فقال رسول الله ﷺ : بلى آيةٌ بينك وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته » - مغازي الواقدي٢/ ٥٣٢ - .

(٣) يعني النساء .

(٤) أي صراع وطراد .

فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال: أفلح الوجه ، قال قلت: قتلته يارسول الله ، قال : صدقت ، قال : ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل في بيته فأعطاني عصا ، فقال : أمسك هذه عندك ياعبد الله بن أنيس .

قال : فخرجت بها على الناس فقالوا : ماهذه العصا؟ قال قلت : أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها ، قالوا : أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك ! قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله لمَ أعطيتني هذه العصا ؟ قال : آية بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقلّ الناس المتخصِّرون يومئذ [1] ، فقرنها عبد الله بسيفه، فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضمَّت في كفنه ثم دفنا جميعا[2] .

وأخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق بهذا الإسناد غير أنه سقط من الإسناد ابن عبد الله بن أنيس ، وذكر مثله وزاد : وقال عبد الله بن أنيس في ذلك :

تركت ابن ثور كالحُوَار[3]وحوله   نوائح تَفْري كل جيب مقدَّد

---

(١) يعني المتكئون على المخاصر وهي العصيّ .

(٢) مسند أحمد ٣/ ٤٩٦ ، وقد تم تصحيح بعض الأخطاء فيه من سيرة ابن هشام .

وأخرجه الإمام أبو داود في سننه - كتاب الصلاة ، باب صلاة الطالب ، رقم ١٢٤٩ (٢/ ٤١)

وحسَّن الحافظ ابن حجر إسناده (فتح الباري ٧/ ٣٨٠) .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني وقال : رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٤- .

(٣) الحوار بضم الحاء هو جنين الناقة إذا استخرج من بطنها بعد نحرها .

تناولته والظُّعن خلفي وخلفه   بأبيض من ماء الحديد مهنَّد (١)

إلى أن قال :

وقلت له خذها بضربة ماجد   حنيف على دين النبي محمد

وكنت إذا همَّ النبي بكافر   سبقت إليه باللسان وباليد (٢)

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف للرسول ﷺ في دقة الرصد الحربي والحزم في مواجهة الفتن وقوة الإدراك في سياسة الأمور ، وإعداد الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها الملائم لها ، فقد رأينا رسول الله ﷺ في هذا الخبر قد تنبَّه لتحركات عدو خطير بدأ يجمع الناس حوله لغزو المسلمين ، فلم يُمهله حتى يكثر جمعه ويشتد ساعده ، بل فكر في القضاء على الفتنة وهي في أيامها الأولى بالقضاء على مصدرها وأساسها ، فوجه للقضاء عليها سهمًا من سهامه الصائبة الذين رباهم على يديه ، ورفعهم الله بدعوته إلى الآفاق العليا .

وهكذا يجب على من ولاه الله أمرا من أمور الأمة أن يكون حازما في قطع مادة الفتنة وهي لاتزال في مهدها لأنها والحال هذه لاتكلف الأمة تضحيات كبيرة ، بخلاف ما إذا استفحل أمرها فإن خطرها يكون كبيرا ، والقضاء عليها يكلف الأمة جهودا كبيرة وخسائر فادحة .

ثانيًا : حسن اختيار النبي ﷺ لذوي الكفاءات ، حيث كان يختار لكل مهمة من يناسبها فيختار للقيادة من يجع بين سداد الرأي وحسن

(١) أي بسيف مصنوع من الحديد الخالص ومن انتاج الهند وهي أجود السيوف .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٨٣ - ٣٨٦ .

التصرف والشجاعة ، ويختار للدعوة والتعليم من يجمع بين غزارة العلم ودماثة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس ، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء من يجمع بين حسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة ، وفي الأعمال الفدائية يختار من يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر .

وهكذا اختار النبي ﷺ لهذه المهمة عبد الله بن أنيس لكونه عالي الشجاعة قوي القلب ، ومما يدل على قوة قلبه قوله « وكنت لا أهاب الرجال » وقوله « ما فَرِقْت من شيء قط » أي أنه لم يكن يشعر بالخوف من أي إنسان إذا قابله ولو كان في غاية الشجاعة والقوة ، ولا من أي حيوان وإن كان في غاية الوحشية ، فلذلك اختاره النبي ﷺ وجعل علامة خالد الهذلي التي يعرفه بها أنه إذا رآه وجد في نفسه قشعريرة منه يعني من الخوف ، وهذا يعني أنه لم يكن يجد ذلك في نفسه من أحد قبله وإلا لما حصلت له هذه العلامة .

كما أن عبد الله بن أنيس كان يتمتع بالمقدرة على التحكم في مشاعره ، فهو حينما رأى خالد الهذلي بدا عليه الخوف ، والخوف يظهر في اصفرار الوجه ، وحينما همَّ بالفتك به لابد أن يكون قد ارتفعت عنده نسبة الغضب إلى حد كبير ، والغضب عادة يظهر في اسوداد الوجه ، وكلما همَّ الإنسان في الدخول في أمر عظيم ظهر ذلك على تقاسيم وجهه ، لكن ابن أنيس استطاع كتمان مشاعره ، وظهر لذلك ا لرجل وكأنه لم يشعر نحوه بأي خوف ، ثم أقدم على قتله وكأنه لم يظهر عليه شيء من الغضب ، وبذلك استطاع أن يلبِّس عليه أمره وأن يظهر أمامه

بمظهر الرجل الناصح الذي يريد أن يكون تابعا له ينفذ له أوامره ، وبهذه المقدرة الفائقة من ابن أنيس على كتمان مشاعره وثق به خالد الهذلي فأمنه ولم يحترز منه .

ثالثًا : الإشارة إلى الجهد الكبير الذي بذله هذا الصحابي الجليل في تنفيذ أمر النبي ﷺ حيث قطع وحده مسافات شاسعة ، وبالغ في الاستخفاء حتى لاينكشف أمره ثم تحيَّن الفرصة المناسبة للقضاء على عدوه، حتى قضى عليه وأراح المسلمين من شره وبلائه .

وإذا أردنا أن نتصور عظمة الجهد الذي بذله فلنتصور مشاعره وهو مقدم على أداء تلك المهمة ، حيث تكتنفه مشاعر الفرح في حال نجاحه، والكآبة والحزن في حال إخفاقه ، ثم لنتصور أسوأ الاحتمالات التي سيلقاها مثل أن يواجه خصمه وهو في عصبة من قومه ، ثم يكتشف خصمه مراده ، فماذا يكون موقفه آنذاك ؟ .

إنه وأمثاله من الأطهار الذين تخرجوا في مدرسة النبوة لايهتمون لأنفسهم إطلاقا ، بل أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة ، ولكنه يهتم لموضوع الإخفاق في أداء مهمته ، حيث إنه لو استشهد واكتشف عدوه مهمته فإن ذلك سيزيد في إيغار صدره على المسلمين وإغرائه بهم ، وهذا يعني أن ابن أنيس سيبذل كل طاقته في سبيل نجاح مهمته .

رابعًا : إن كل عامل يقدِّم أعمالا كبيرة أو صغيرة فإنه ينتظر جزاءها، فأهل الدنيا يحصلون على جزائهم بالمكافآت المادية أو المعنوية، لكن الصحابة رضي الله عنهم وسائر المتقين لاينتظرون جزاء في الدنيا. ولو حصلوا على شيء من ذلك فإنه لايعتبر عندهم شيئًا كبيرا ، وإنما ينتظرون جزاءهم في الآخرة .

ولهذا كانت مكافأة هذا البطل العظيم التي غبطه عليها الصحابة هي تلك العصا التي ستكون علامة بينه وبين رسول الله ﷺ يوم القيامة ، وهذا يعني أن ذكْره سيرتفع في الآخرة .

وهكذا كافأه النبي بهذا الجزاء العظيم الذي تهون أمامه الدنيا بأسرها ، وهل أعظم جزاءً من أن يعده النبي ﷺ بملاقاته يوم القيامة؟ ! وهل كانت أماني الصحابة التي كانوا حولها يدندنون إلا أن يكونوا مع النبي ﷺ في الجنة ؟ ! .

*　*　*

٦ - مواقف في سرية الرجيع [١] -

أخرج الإمام البخاري من حديث ابن شهاب الزهري قال أخبرني عمرُو بن جارية الثقفيُّ حليفُ بني زُهرة ، وكان من أصحاب أبي هريرة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « بعث رسول الله ﷺ عشرة عينا وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب ، حتى إذا كانوا بالهدأة بين عُسفان ومكة[٢] ذُكروا لحَيٍّ من هُذيل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه ، فقالوا : تمرُ يثرب ، فاتبعوا آثارهم . فلما حَسَّ بهم عاصمٌ وأصحابهُ لجأوا إلى مَوضع . فأحاطَ بهم القوم فقالوا لهم : انزلوا فأعطوا بأيديكم ، ولكمُ العهدُ والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا .

فقال عاصمُ بن ثابت : أيها القوم ، أما أنا فلا أنزلُ في ذمة كافر . ثم قال : اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ . فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما [٣]، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق ، منهم خُبيبٌ وزيدُ بن الدَّثنة ورجل آخر [٤] . فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بها ، قال

(١) الرجيع اسم مكان في بلاد هذيل ، كانت الوقعة بقربه قال البلادي : ويعرف اليوم بالوطيَّه (الوطأة) وهو ماء شرق عسفان يسار الخارج من عسفان إلى مكة ، يفرق طريقه على ثلاثة عشر كيلا من عسفان ويبعد عن الطريق قرابة سبعة أكيال في لحف حرة الجابرية - معجم معالم الحجاز ٤/ ٣٥ - .

(٢) الهَدْأة اسم مكان لهذيل قرب الرجيع .

(٣) جاء في نسخة البخاري التي اختارها الحافظ ابن حجر « فقتلوا اعاصما في سبعة » قال : أي في جملة سبعة .

(٤) هو عبد الله بن طارق كما في رواية ابن إسحاق .

الرجلُ الثالث : هذا أولُ الغَدر ، والله لا أصحبُكم ، إن لي بهؤلاء أسوة - يـريدُ القتلى - فجـرَّروه وعـالجـوه ، فـأبـي أن يَصـحبـهـم (١) .

فانطُلق بخبيب وزيد ابن الدَّثنَّة حتى باعوهما بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خُبيبًا - وكان خبيبُ هو قتل الحارث بن عامر يومَ بدر - فلبث خبيبٌ عندهم أسيرًا حتى أجمعوا قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحدُّ بها ، فأعارته ، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه ، فوجدته مُجْلسَه على فخذه والموسى بيده . قالت : ففزعتُ فزعةً عرَفها خُبيب . فقال : أتخشين أن أقتله؟ ماكنتُ لأفعل ذلك .

قالت : والله ما رأيتُ أسيرًا قطُّ خيرًا من خُبيب ، والله لقد وجدته يومًا يأكلُ قطفا من عنب في يده وإنه لموثقٌ بالحديد ، ومابمكة من ثمرة . وكانت تقول : إنه لرزقٌ رزقه الله خبيبًا .

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب : دَعُوني أصلي ركعتين ، فتركوهُ فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أنَّ مابي جزعٌ لزدت . ثم قال اللهم أحصهم عددًا ، واقتلهم بددا ، ولاتُبق منهم أحدا . ثم أنشأ يقول :

فلستُ أبالي حين أقْتَلُ مسلمًا　　على أيِّ جنب كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإلـه وإن يشأ　　يُبارك على أوصال شلو ممـزع

ثم قام إليه أبو سرْوعة عُقبة بن الحارث فقتله . وكان خبيبٌ هو سَنَّ لكل مسلم قُتل صبرًا الصلاة .

---

(١) جاء في رواية ابن إسحاق « ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه» .

وأخبر - يعني النبي ﷺ - أصحابه يوم أصيبوا خبرهم .

وبعث ناسٌ من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتل أن يؤتَوا بشيء منه يُعرف - وكان قتلَ رجلا عظيماً من عظمائهم - فبعث الله لعاصم مثل الظُّلة من الدَّبْر فحَمَتْهُ من رُسُلهم ، فلم يقدروا أن يَقطعوا منه شيئًا » [1] .

وأخرجه ابن إسحاق بزيادات واختلاف في بعض سياقه [2] .

وقد جاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين قالوا للمسلمين : إنا والله ما نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لانقتلكم .

فأما مرثد بن أبي مرثد ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت فقالوا : والله لانقبْل من مُشرك عهداً ولاعقدا أبدا ، فقال عاصم بن ثابت :

ما علّتي وأنا جَلْدٌ نابل والقَوْسُ فيها وترٌ عنابلُ [3]

تَزلُّ عن صفْحتها المعابل [4] الموتُ حقٌ والحياةُ باطل

وكلٌّ ماحَمَّ الإله نازل بالمرء ، والمرءُ إليه آئل

إن لم أقاتلكم فأمي هابل [5]

(١) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٣٩٨٩ و ٤٠٨٦ (٧/ ٣٠٨، ٣٧٨) .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٥٦ - ١٦٦ .

(٣) أي غليظ .

(٤) أي النصال العريضه الطويلة .

(٥) قال ابن هشام : هابل : ثاكل .

وقال عاصم بن ثابت أيضًا :

أبـو سُليمان ومثْلي رامَـــى   وكـان قوْمي معشراً كـراما

وكان عاصم بن ثابت يكنى : أبا سليمان ثم قاتل القوم عاصم حتى قُتل وقُتل صاحباه .

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ، ليبيعوه من سُلافة بنت سَعد بن شُهيد ، وكانت قد نذَرت حين أصاب ابنيها يوم أُحد : لئن قَدَرَتْ على رأس عاصم لتشربن في قحفه [1] الخمر ، فمنعته الدَّبْر [2] ، فلما حالت بَيْنه وبينهم الدبْرُ قالوا : دعُوه حتى يُمسي فتذهب عنه ، فنأخذه، فبعث الله الوادي [3] ، فاحتمل عاصما ، فذهب به [4] . وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدا أن لايمسَّه مشرك ، ولايمس مُشركًا أبدًا ، تنجُّسا ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدّبْر منعته : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نَذَر أن لايمسَّه مشركٌ ، ولايمسّ مُشركًا أبدا في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه في حياته .

قال ابن إسحاق : وأما زيد بن الدَّثنة فابتاعه صَفوان بن أُميَّة ليقتله

---

(١) القحف العظم الذي فوق الدماغ .

(٢) جمع الدبُور ، يعني صارت الدبابير تلسعهم فحمته منهم .

(٣) أي أجرى الله الوادي بالسيل .

(٤) وجاء في رواية الواقدي : فلما جاء الليل بعث الله عليه سيلا - وكنا ما نرى في السماء سحابا في وجه من الوجوه - فاحتمله فذهب به فلم يصلوا إليه .

بأبيه أميَّة بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قُريش ، فيهم أبو سفيان ابن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليُقتل : أنشُدُك الله يازيد ، أتحبّ أن محمدا عندنا الآن في مكانك نَضْرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تُؤذيه ، وأني جالس في أهلي . قال : يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يُحبّ أحدًا كحبّ أصحاب محمد محمدًا ، ثم قتله نسطاس ، يرحمه الله .

قال ابن إسحاق : وكان مما قيل في ذلك من الشعر ، قول خُبيب بن عديّ حين بلغه أن القومَ قد اجتمعوا لصَلبه .

لقد جمَّع الأحزابُ حولي وألَّبوا	قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
وكلُّهمُ مُبدي العداوة جاهدٌ	عَلَيّ لأني في وَثاق بمضْيع
وقد جمعوا أبناءَهم ونساءَهم	وقُرِّبتُ من جذع طَويل مُمنَّع
إلى الله أشكو غُرْبتي ثم كرْبتي	وماأرْصَد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرِّني على ما يُرادُ بي	فقد بَضَعوا لحمي وقد ياس مطمَعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يُبارك على أوصال شلْو مُمزَّع
وقد خيَّروني الكفْر والموتُ دونه	وقد هَمَلت عيناىَ من غير مَجزع
ومابي حذارُ الموت إني لميتٌ	ولكنْ حذَاري جَحْم نار مُلفّع
فو الله ما أرجُو إذا متّ مُسْلما	عَلَى أيّ جَنْب كان في الله مصرعي
فَلَستُ بمبد للعَدُوّ تَخَشُّعا	ولا جَزَعاإني إلى الله مَرْجعي(١)

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٥٧ - ١٦٧ .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : خروج هذه السرية بهذا العدد القليل إلى تلك المسافة البعيدة يعتبر مغامرة جريئة وتضحية كبيرة .

وقد كانت مهمتهم التجسس على الأعداء كما جاء في هذه الرواية ، وذلك لما تنامَى إلى أسماع النبي ﷺ وأصحابه من أخبار بعض القبائل التي تتحدث بغزو المدينة ، ومن ذلك ما سبق في خبر بني أسد وخالد بن نبيح الهذلي ، فكان لا بد من المغامرة بعدد محدود من المسلمين ليوافوا رسول الله ﷺ ومستشاريه بأخبار الأعداء قبل أن يتجمعوا ويصعب القضاء عليهم .

وقد جاء في رواية ابن إسحاق ما يفيد بأن لهذه السرية مهمةً دعوية ، وفي ذلك يقول عاصم بن عمر بن قتادة : قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يارسول الله إن فينا إسلاما فابعث نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رواية البخاري ، ثم قال : وقد خالفه محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة بن الزبير في بعض ذلك ، ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف ، على أن ابن إسحاق إمام في هذا الشأن غير مدافع ، كما قال الشافعي رحمه الله : من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق [1] .

= وأخرجه الواقدي عن عدد من الشيوخ وذكره نحوه - مغازي الواقدي ١/ ٣٥٤ - ٣٦٣ - . وذكر أن الوقعة كانت في شهر صفر سنة أربع من الهجرة .

(١) البداية والنهاية ٤/ ٦٦ .

لكن يمكن الجمع بين الروايتين باحتمال أن النبي ﷺ قد بعث أفراد تلك السرية للمهمتين معا ، وأن إحدى المهمتين علنية وهي المهمة الدعوية التي ذكرها عاصم بن عمر في رواية ابن إسحاق ، والأخرى سرية وهي مهمة التجسس على الأعداء ، فذكر عاصم عن أشياخه من الأنصار المهمة المعلنة ، ووعى أبو هريرة المهمة السرية عمن أخبره من الصحابة حيث لم يهاجر إلى المدينة إلا في العام السابع فحدث بها ، ولعله رأى هو أو من حدثه أنها المهمة الأساسية فاكتفى بذكرها ، ويكون من أخبر عاصم بن عمر بن قتادة بالمهمة العلنية لم يعلم بالمهمة السرية والله أعلم .

هذا هو أهم الاختلافات بين الروايتين ، وهناك اختلافات أخرى منها أن أمير السرية في رواية البخاري هو عاصم بن ثابت ، وفي رواية ابن إسحاق مرثد بن أبي مرثد ، ومنها أن عدد أفراد السرية في رواية البخاري عشرة ، وفي رواية ابن إسحاق ستة ، لكن رواية البخاري هي المقدمة في ذلك لأنها أصح .

ثانيًا : موقف جليل لعاصم بن ثابت وجماعته رضي الله عنهم حيث أبوا أن يستسلموا وأن ينزلوا على ذمة الكفار ، وتصدوا لقتال مائة من الرماة ، وقُتل بنبال العدو سبعة من العشرة فيهم أميرهم عاصم بن ثابت ، وبقي ثلاثة هم خبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنَّة ، وعبد الله بن طارق ، فاختاروا الاستسلام بعد قتل أصحابهم ، ثم حاول المقاومة بعد ذلك عبد الله بن طارق فقتلوه وبقي خبيب وزيد ، وكان بقاؤهما خيرا للمسلمين حيث سطرا في الأيام الأخيرة من حياتهما مواقف عالية في الصبر على الأذى واحتساب الأجر عند الله تعالى وإظهار عزة الإسلام .

ثالثًا : في أشعار عاصم بن ثابت التي ذكرها ابن إسحاق في روايته تظهر عزة الإسلام والقوة في تحدي أهل الباطل .

وما جرى له من حماية الدبابير ومنعها المشركين من الدنو من جثته ، ثم مجيء السيل وحمل جسده ودفنه عبرة عظيمة ، حيث كان هذا الصحابي الجليل نذر أن لايمس جسده مشرك تنجُّساً ، وجاء في رواية الواقدي أنه بعد أن قاتل القوم قال : اللهم حَمَيْت دينك أول النهار فاحْم لي لحمي آخره .

فقد أكرم الله هذا الولي الصالح فاستجاب دعاءه فلم يعبث المشركون بجسده ، ولم تتمكن سلافة بنت سعد بن شُهَيد من شفاء غيظها منه بشرب الخمر في قحف رأسه .

ولقد كانت هذه الكرامة آية أظهرها الله تعالى لأولئك الأعراب ، حيث عجزوا عن الوصول إلى جسد عاصم مرتين ، ولئن قالوا بأن الدبابير جاءت صُدفة فكيف يقولون في السيل الذي جاء وما في السماء قطعة سحاب ؟ ! وكيف يجتمع الأمران على سبيل الصدفة ؟ .

لقد كان فيما جرى لهم من عاصم عبرة ، لو اعتبروا بها لقادتهم إلى الإسلام ، ولكفَّروا عن ذنبهم الكبير بإطلاق الأسرى الثلاثة واتخاذهم أئمة هدى يتعلمون الإسلام منهم ، ولكنهم أصحاب هوى ، والدين الذي يخضعون له هو مصالحهم الدنيوية ، فقد قاموا بذلك العمل الشنيع من أجل أن يستأسر لهم أفراد السرية ثم يبيعوهم من قريش ، ولقد حرصوا على أخذ رأس عاصم لضخامة الجُعل الذي جعلته سلافة لمن يأتي لها برأسه ، كما جاء في رواية الواقدي أنها جعلت لمن جاء برأس

عاصم مائة ناقة ، وكان عاصم قتل ابنيها الحارث ومسافعا كما جاء في رواية الواقدي وكما سبق في غزوة أحد .

وهكذا تضيع الفضيلة وتُفقد الكرامة حينما تسيطر النظرة المادية على تفكير الإنسان ، وإذا خلا قلبه من الإيمان بالله تعالى الذي يسمو بفكره نحو الحياة الآخرة فإن تفكيره يكون مقصورا على الحياة الدنيا . . من أجلها يحب ويبغض ، ومن أجلها يوالي ويعادي ، ويقسو قلبه ويتجبر حينما يغلب غيره ويكون في موطن القوة ، ويضعف ويستخذي حينما يُغلَب ويكون تحت رحمة غيره .

رابعًا : جرى لخُبيب بن عدي رضي الله عنه وهو في محبسه مواقف وعبر ، فمن ذلك خبره مع بُنيّ المرأة التي كان محبوسا عندها حينما فزعت لما رأته معه والموسى بيده فقال « أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل» وجاء في رواية الواقدي : « ما كنت لأقتله وما نستحل في ديننا الغدر» وهذا مثل من عظمة الصحابة رضي الله عنهم حيث يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم وإن كانوا قد ظلموهم ، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم .

ومن ذلك تجمُّله بالصبر وعدم إشفاقه من القتل ، وفي ذلك تقول ماوية مولاة بني عبد مناف التي كان محبوسا عندها : « فقلت له : ياخبيب هل لك من حاجة ؟ قال : لا ، إلا أن تسقيني العذب ولاتطعميني مما ذبح على النُّصُب ، وتخبريني إذا أرادوا قتلي ، قالت : فلما انسلخ الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أتيته فأخبرته ، فو الله ما رأيته اكترث لذلك » . ذكره الواقدي في روايته وذكر أن ماوية هذه قد أسلمت فيما بَعْد وحسن إسلامها .

ومن جلَده وصبره الجميل قوله لهم « دعوني أصلي ركعتين فتركوه فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت » وقوله في شعره الذي جاء في هذه الروايات :

فـلست أبالي حين أُقتل مسلما على أي جَنْب كان لله مصرعي

إلى أن قال :

فلست بمُبْـد للعـدو تخـشعـا ولا جزعا إني إلى الله مرجعي

ولاشك أن هذا الجَلَد القوي والصبر الجميل يغيظ الأعداء لأنه يُضعف من مفعول كيدهم .

وفي صلاة خبيب قبل القتل يروي الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : أول من سنَّ الركعتين عند القتل خبيب .

وهذا موقف يذكر له رضي الله عنه حيث كانت الصلاة هي آخر عمل قدَّمه قبل موته .

وجاء في رواية الواقدي أنهم ساوموه ليرجع عن دينه فأبى عليهم، وفي ذلك يقول فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة ، ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطا ، ثم قالوا : ارجع عن الإسلام نُخَلِّ سبيلك ، قال : لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعا .

وهذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء ، حيث تعلو النفوس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام ، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة والمفاهيم العالية ، فما في الأرض جميعا من متاع لا يساوي شيئا في جانب الهداية إلى الصراط المستقيم ، والبقاء على قيد الحياة مطلب

رخيص إذا قورن بالثبات على الإيمان والاستشهاد في سبيله ، وقد جاء هذا المعنى في كلام خبيب كما في رواية الواقدي « فجعلوا يقولون : ارجع يا خبيب ، قال : لا أرجع أبدا ، قالوا : أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنَّك ، قال : إن قتلي في الله لقليل » .

وجاء في إحدى روايات البخاري : أن خبيبا لما قُتل مكث ساعة يوحد الله ويشهد أن محمدا رسول الله ، ثم ذكر الراوي قول الأخنس بن شريق : لو ترك ذكر محمد على حال لتركه على هذه الحال ، ما رأينا قط والدا يَجدُ بولد ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ .

ومن ذلك ما أكرمه الله تعالى به من العنب الذي وصل إليه وهو موثق بالحديد ولم يكن بمكة آنذاك شيء من العنب ، وهذه الكرامة ساقها الله تعالى إليه ليثبته ولتعظم طمأنينته بأن الله تعالى معه وأنه قد رضي عنه ، فإن شاء جل وعلا لَهُ الحياة فسينالها رغم ما هو فيه من حبس وقيود ، وإن شاء أن يتخذه شهيداً فهذا غاية ما يتمناه المؤمن الصادق .

ولقد كان في إشاعة هذا الخبر بين المشركين آية تهديهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي كان سببا في ظهور تلك الكرامة الخارقة للعادة على يد خبيب ولكنهم لم يكونوا متجردين من الهوى ، ومن كان منهم قد تأثر بهذه العبرة وأمثالها فإنه لا يستطيع أن يظهر مشاعره خشيةً من زعماء الكفار .

خامسا : تبين لنا في رواية ابن إسحاق أنه حينما قَدَّم المشركون زيد ابن الدثنة رضي الله عنه للقتل قال له أبو سفيان : أنشُدُكَ اللهَ يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما

أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي ، قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

وهذا تعبير بليغ عن حب الصحابة الشديد لرسول الله ﷺ الذي يصل إلى فدائه بأنفسهم فضلاً عن أموالهم ، ولقد جاء في رواية للواقدي مثل ذلك عن خبيب بن عدي رضي الله عنه .

ولقد اعترف بذلك زعماء الكفار في ذلك العصر كما في هذا الخبر عن أبي سفيان وفي خبر خبيب صدر عن الأخنس بن شريق (١) . وصدور هذا الاعتراف من الزعماء يدل على شهرة ذلك إلى الحد الذي لا يستطيعون إخفاءه .

وإذا نظرنا إلى حب الصحابة لرسول الله ﷺ باعتباره زعيما لتجمع ديني كما يراه الكفار المعاصرون له الذين لا يؤمنون بكونه رسولا فإن ذلك يبعث فيهم الإحباط واليأس من إمكانية القضاء عليه وعلى تجمعه لاستحالة وجود أهم عناصر الفشل والانهزام وهو ضعف الثقة بين الزعيم وجنوده ، كما أن اعتراف زعماء الكفار بعدم وجود زعيم يحبه جنوده كحب المسلمين لرسول الله ﷺ يجب أن يقودهم إلى التفكير المتأمل في هذا الموضوع ، لمعرفة سبب انفراد النبي ﷺ من بين الزعماء بهذه الميزة العظيمة ، وبالتالي فإن ذلك يفرض عليهم الإيمان بكونه رسولاً من عند الله تعالى ، لأن هذه هي الخصوصية الوحيدة البارزة ،

---

(١) ينبغي أن يعلم أن أبا سفيان قد أسلم عام الفتح وحسن إسلامه وذكر الحافظ ابن حجر الخلاف في إسلام الأخنس ورجح إسلامه - الإصابة ١/ ٣٩ رقم ٦١ - .

وكونه ﷺ يتمتع بأعلى المواهب الإنسانية إنما هو من لوازم الرسالة ، ولم يكن النبي ﷺ ينسب لنفسه أي تفوق في تلك المواهب وإنما كان الشيء الوحيد الذي يدعو إليه هو الإيمان بكونه مرسلاً من الله تعالى ، ولكن الكفار كانوا في سبات عميق وحُجُب كثيفة من اتباع هوى النفوس وتقديس ميراث الآباء والأجداد والاعتزاز بالمجد الدنيوي ، فلم يُعملوا أفكارهم في المقارنة بين المقدمات والنتائج ، فكانوا يطلقون المقدمَات التي تُلزمهم بنتائجها ولكنهم لا يبحثون في أسباب تلك المقدمات ولا يُلزمون أنفسَهم بنتائجها .

سادسا : في هذا الخبر بُذلت دماء زكية في سبيل الله تعالى ، وبعضها قُتل أصحابها صبراً وعلى مشهد يضم جمعاً كبيراً من الناس ، وهذه الدماء الزكية تُعتبر من أهم الأسباب التي تُغَذِّي الدعوة الإسلامية وتدفع بها إلى الأمام ، لأن الذين يحضرون هذه المشاهد أو تُروى لهم يعلمون أن وراءها هدفاً كبيراً سامياً هو نصرة الإسلام ، وبالتالي يعلمون بأن هذا الدين الذي يحمل أتباعه على بذل النفوس طواعية وبشوق بالغ من أجله ، والصبر الطويل الجميل على الأذى في سبيله . . يعلمون أنه الدين الحق الذي يجب الإيمان به واتباعه .

ولا شك أن هذا الحادث الجلل قد ترك أثراً واضحاً على مفكري قريش ، حيث دفعهم إلى الميل نحو الإسلام والتعاطف مع المسلمين ، إضافةً إلى الأحداث الأخرى المشابهة ، مِمَّا جعل دخولهم في الإسلام سريعاً بعد فتح مكة المكرمة .

* * *

٧ – مواقف في سرية بئر مَعُونة –

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ بقية شوّال وذا القعدة وذا الحجة – ووَلي تلك الحجة المشركون – والمحرم ، ثم بعث رسولُ الله ﷺ أصحابَ بئر معونة في صفر ، على رأس أربعة أشهر من أحُد [١] .

وكان من حديثهم ، كما حدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وغيره من أهل العلم قالوا : قدم أبو بَراء عامر بن مالك بن جعفر مُلاعب الأسنَّة على رسول الله ﷺ المدينة ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، ودعاه إليه ، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ؛ فقال رسول الله ﷺ : إني أخشى عليهم أهل نجد ؛ قال أنا لهم جار ، فابْعَثْهُمْ فليدْعُوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة ، المُعْنق ليموت[٢] ، في أربعين رجلا من أصحابه [٣] ، من خيار المسلمين ، منهم : الحارث بن الصِمَّة ، وحرام بن مِلْحان أخو بني عدي بن النَّجّار ،

---

(١) يعني في السنة الرابعة للهجرة .

(١) المعنق : المسرع ، وإنما سمي بذلك لإسراعه إلى الشهادة ، واللام في «ليموت» للعاقبة ، أي إن عاقبة خروجهم الموت .

(٣) جاء في رواية الإمام البخاري ومسلم أن عددهم سبعون ويمكن الجمع بين الروايتين بأن الأربعين هم القراء الذين وكل إليهم النبي ﷺ مهمة الدعوة ، والثلاثين أتباع لهم يساعدونهم في المهام الجهادية من الحراسة والحماية والدفاع ، فيكون بعض الرواة ذكروا العدد الكامل وبعضهم ذكر عدد الذين أنيطت بهم المهمة المذكورة . =

وعروة بن أسماء بن الصَّلت السلمي ونافع بن بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعيّ ، وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر الصدِّيق ، في رجال مُسمَّين من خيار المسلمين . فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحَرة بني سُليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهي إلى حرة بني سُليم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملْحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوّ الله عامر بن الطفيل ؛ فلما أتاه لَم ينظُر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله (١) ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نُخْفرَ أبا بَراء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ؛ فاستصرخ عليهم قبائلَ مَن بني سُلَيم من عُصيَّة ورعْل وذكْوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخَرجوا حتى غَشُوا القَوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قُتلوا من عند آخرهم ، يرحمهم الله ، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتُث (٢) من بين القتلى ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً، رحمه الله .

وكان في سَرْح (٣) القوم عمرو بن أُمية الضَمْري ، ورجل من

= ولعل الحافظ ابن حجر يشير إلى ذلك حينما قال في الجمع بين الروايتين بعدما ذكر خبر ابن إسحاق : ويمكن الجمع بينه وبين الذي في الصحيح بأن الأربعين كانوا رؤساء وبقية العدة أتباعا - فتح الباري ٧/ ٣٨٧ - .

(١) جاء في رواية البخاري « فأومئوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه » فتكون نسبة القتل إلى عامر لأنه هو الذي أمر بذلك .

(٢) ارتث على البناء المجهول ، أي حمل من المعركة رثيثا أي جريحا وبه رمق .

(٣) السرح : الماشية في حال ذهابها إلى المرعى .

الأنصار، أحد بني عمرو بن عوف [٢] . فلم يُنبئهما بمُصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العَسكر ، فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم ، وإذا الخيلُ التي أصابتهم واقفة . فقال الأنصاري لعمرو بن أُميّة : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ ، فنخبره الخبر؛ فقال الأنصاري : ما كنتُ لأرغَبَ بنفسي عن مَوْطن قُتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتُخْبرني عنه الرجال ؛ ثم قاتل القومَ حتى قُتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل ، وجز ناصيته ؛ وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه .

فخرج عمرو بن أُمية حتى إذا كان بالقَرْقرة من صَدر قناة ، أقبل رجلان من بني عامر[٣] حتى نزلا معه في ظل هو فيه . وإنَّ مع العامريَّيْن عَقدٌ من رسول الله ﷺ وجوار ، لم يَعلم به عمرو بن أُمية ، وقد سألهما حين نزلا : ممن أنتما ؟ فقالا : من بني عامر ، فأمهلهما ، حتى إذا ناما ، عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤْرةً من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ ، فأخبره الخَبر ، قال رسول الله ﷺ : لقد قتلت قتيلين ، لأدينَّهما !

ثم قال رسول الله ﷺ : هذا عمل أبي بَراء ، قد كنت لهذا كارهاً مُتَخَوفا . فبلغ ذلك أبا براء ، فشقّ عليه إخفارُ عامر إيَّاه ، وما أصاب

(١) قال ابن هشام : هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح .

(٢) قال ابن هشام : ثم من بني كلاب ، وذكر أبو عمرو المدني أنهما من بني سليم .

أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره ؛ وكان فيمن أصيب عامر بن فُهيرة .

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عُروة ، عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول : مَنْ رجل منهم لما قُتل رأيته رُفع بين السماء والأرض، حتى رأيت السماء من دونه ؟ قالوا : هو عامر بن فُهيرة[1] .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض بني جَبار بن سَلْمى بن مالك ابن جعفر ، قال - وكان جبَّار فيمن حضرها يومئذ مع عامر ثم أسلم - قال : فكان يقول : إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنتُ رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه فنظرتُ إلى سنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فُزْتُ والله ! فقلت في نفسي : ما فاز ! ألستُ قد قتلتُ الرجلَ ! قال : سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : للشهادة ، فقلت : فاز لَعمْر الله .

قال ابن إسحاق : وقال حسَّان بن ثابت يحرّض بني أبي بَراء على عامر بن الطفيل :

بَني أمِّ البنينَ ألم يَرعكمْ ... وأنتم من ذَوائب أهل نَجْد

تهَكُّم عامرٍ بأبي بَراءٍ ... ليُخْفرَهُ ، وما خَطَأٌ كَعَمْد

ألا أبْلغْ ربيعةَ ذا المساعي ... فما أحدثْتَ في الحَدثان بعدي

أبوك أبو الحُروب أبو بَراء ... وخالُك ماجدٌ حكَم بن سَعْد

قال ابن إسحاق : فحمل ربيعةُ بن عامر بن مالك على عامر بن

(١) جاء ذلك في رواية للإمام البخاري وفيه ان عامر بن الطفيل سأل عنه عمرو بن أمية الضمري- صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٩٣ (٧/ ٣٨٨) .

الطفيل فطعنه بالرمح ، فوقع في فخذه ، فأشْواه [1] ، ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عمل أبي بَراء ، إن أمُتْ فَدمي لعمِّي . فلا يُتْبعَنَّ به ، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أُتيَ إليّ [2] .

وجاء في إحدى روايات الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « لما طُعن حرام بن ملحان - وكان خاله - يوم بئر معونة قال بالدم هكذا ، فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال : فزت ورب الكعبة » [3] .

وجاء في رواية مسلم من حديث أنس بن مالك « فقال رسول الله ﷺ لأصحابه « إن إخوانكم قد قتلوا ، وإنهم قالوا : اللهم بلِّغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا » [4] .

وفي رواية للبخاري من حديث أنس بن مالك قال : « دعا النبي ﷺ

---

(١) أي أخطأ مقتله .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٢ - ٢١٧ .

وأخرجه الإمام البخاري في عدة روايات مختصرة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه- صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٨٨ - ٤٠٩٢ (٧/ ٣٨٥) - .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه مختصرا - صحيح مسلم ، الإمارة ، رقم ٦٧٧ (ص ١٥١١) - .

وأخرجه الإمام ابن جرير الطبري من حديث ابن إسحاق بإسناد ابن هشام ، ثم أخرجه عن ابن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس بن مالك ، ثم أخرجه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري عن أنس بن مالك . . وذكر نحوه - تاريخ الطبري ٢/ ٥٤٥-٥٥٠- .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٩٢ (٧/ ٣٨٦) .

(٤) صحيح مسلم ، الإمارة رقم ٦٧٧ (ص ١٥١١) .

على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحا حين يدعو على رعل ولحيان وعُصَيَّة ، عصت الله ورسوله ﷺ قال أنس : فأنزل الله تعالى لنبيه في الذين قتلوا أصحاب بئر معونة قرآنا قرأناه ، ثم نسخ بعد : بلِّغوا قومنا فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » (١) .

وقوله « يدعو على رعل ولحيان وعُصَيَّة » وفي رواية البخاري يدعو على رعل وذكوان ويقول : عصية عصت الله ورسوله » فأما بنورعْل وذكوان وعصية فهم فروع من قبيلة سُلَيم وهم الذين قتلوا الصحابة في بئر معونة ، وأما بنو لحيان فقد قتلوا الصحابة في بئر الرجيع كما سبق وكانت الحادثتان في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ جميعا .

مواقف وعبر من هذا الخبر :

أحداث هذه السرية والسرية التي قبلها ونتائجهما تختلف عن أحداث ونتائج الغزوات والسرايا السابقة فقد ألفنا في كل الغزوات والسرايا أن نرى انتصارات المسلمين الظاهرة مع ما يصيبهم من قتل أو جراح ، ولكننا في هاتين السريتين رأينا استئصالا كاملا للمسلمين .

والحقيقة أن معايير الانتصار والانهزام لا تخضع لحجم الخسائر المادية التي من ضمنها وقوع الضحايا وإنما تخضع لمدى الثبات على المبادئ التي قامت الحروب من أجلها أو التراجع في هذا الأمر ، ومن ذلك معرفة مدى الحماس في تمثيل هذه المبادئ أو الفتور في تمثيلها ، وشدة التلاحم بين القائد وجنوده أو ضعف ذلك ، ومدى التماسك بين

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٩٥ (٧/ ٣٨٩) .

أفراد الجماعة قوة أو ضعفا ، إضافة إلى مقدار التضحية بالنفس والمال من أجل خدمة المبادئ .

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين في العهد النبوي نجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في ثبات دائم على المبادئ السامية التي من أجلها قطعوا الوشائج مع الأقارب والأصدقاء والحلفاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، ونجد أن الانتصار المادي لايبطرهم ولايطغيهم ، وأن الإصابات المادية لاتضعفهم ولاتحطم معنويتهم ، وأن حماسهم في الدفاع عن الإسلام ثابت على قوته ، وأن طاعتهم لقائدهم ﷺ تعتبر مضرب الأمثال ، حتى اعترف بذلك الأعداء أنفسهم ، وأن سلوكهم الاجتماعي في قمة التفوق الأخلاقي حيث يُؤثر بعضهم بعضا بأمور الحياة الدنيا ، وأن أسمى أمانيهم أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى .

وهذا يعني أنهم في انتصار دائم وإن واجهوا الخسائر المادية في بعض لقاءاتهم مع أعدائهم .

نعم ، لو أن أفراد هاتين السريتين ألْقَوا بأنفسهم لأعدائهم وتخلوا عن دينهم الذي من أجله خرجوا لكان ذلك هزيمة واضحة لدولة الإسلام، وانتكاسة كبرى للدعوة الإسلامية ، ولكن أنَّى يكون ذلك وهم يتغنَّون بالشهادة ويقول الواحد منهم إذا قُتل « فزت ورب الكعبة»! .

إن أعظم انتصار لدعوة الإسلام أن يجود أفرادها بدمائهم الزكية من أجلها .

إن الإسلام دين عظيم ، ولايُفْدَى العظيم إلا بالعظيم ، ولا أعظم من أن يجود الإنسان بدمه فداء لدينه .

فلذلك كان استشهاد هؤلاء العظماء نصراً عظيمًا للإسلام .

إن بعض النفوس تظل في شك من مصداقية هذه الدعوة ومدى ثباتها أمام الأعاصير العاتية ، حتى ترى قَسَمات الفرح بادية على وجوه أفرادها وهم يواجهون الموت في سبيلها .

وإن المشهد العالي الذي مثَّله حرام بن ملحان رضي الله عنه وقد اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه ويمسح به وجهه ورأسه ويقول « فزت ورب الكعبة » . . إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجراً يتأثر ، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لاتصفَرٌّ وجوههم فزعا من الموت وإنما يعلوها البشر والسرور ، وتغشاها السكينة والطمأنينة . ولقد كان لبعض هذه المشاهد أثر في إسلام بعض مرتكبي هذه الجريمة فيما بعد كما جاء في أخبار هذه السرية .

ونجد من المواقف العالية في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ وَدَى ذينك الرجلين العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري لكونهما يحملان عقداً منه ﷺ ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما ، وهذا يمثِّل منتهى القمة في الوفاء بالعهود .

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزءاً من الانتقام الذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون ، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين من قومهم ؟ ! .

إن هذا يعتبر مثلا من الرقي الأخلاقي الذي بلغه المسلمون في ظل تطبيقهم لتوجيهات الإسلام العالية .

* * *

٨ – مواقف في إجلاء بني النَّضير –

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني عن معمر عن الزهري قال : وأخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب ا لنبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ، ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة ، قبل وقعة بدر ، يقولون : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً ، وإنا نُقسم بالله لتقتلُنَّه أو لتُخرجُنَّه ، أو لنستعينَنَّ عليكم العرب ، ثم لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم .

فلما بلغ ذلك ابن أُبَيّ ومن معه من عبدة الأوثان ، تراسلوا ، فاجتمعوا وأرسلوا ، وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم في جماعة ، فقال : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرّقوا .

فبلغ ذلك كفار قريش ، وكانت وقعة بدر ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلُنَّ صاحبنا أو لنفعلنَّ كذا وكذا ، ولايحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل - .

فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر ، فأرسلت إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ، ولنخرج في

ثلاثين حبراً ، حتى نلتقي في مكان كذا نصَف بيننا وبينكم ، فيسمعوا منك ، فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنَّا كلُّنا ، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه ، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود ، حتى إذا برزوا في بَرَاز من الأرض ، قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ، ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه ، كلهم يُحبّ أن يموت قبله ، فأرسلوا إليه : كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ، فليسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنَّا كُلُّنا وصدقناك ، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه ، واشتملوا[1] على الخناجر ، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ .

فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها ، وهو رجل مسلم من الأنصار ، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعًا ، حتى أدرك النبي ﷺ ، فسارّه بخبرهم ، قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم ، فرجع النبي ﷺ .

فلما كان من الغد ، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب ، فحاصرهم ، وقال لهم : إنكم لاتأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه ، فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب ، وتَرَك بني النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم ، وغدا إلى بني النضير بالكتائب ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل إلاَّ الحلقة ، - والحلقة : السلاح - فجاءَت بنو النضير . واحتملوا ما أقلَّت الإبل من

---

(١) أي اليهود الثلاثة .

أمتعتهم ، وأبواب بيوتهم وخشبها ، فكانوا يُخربون بيوتهم ، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام .

وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل ، لم يُصبهُم جلاءٌ منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاءَ . فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ ، فلولا ما كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا كما عُذِّبتْ بنو قريظة ، فأنزل الله ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) وكانت نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، فأعطاه الله إياها ، وخصه بها ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ ﴾ (2) يقول : بغير قتال ، قال : فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين ، وقسمها بينهم ، ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة ، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما (3) وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ في يد بني فاطمة (4) .

---

(1) سورة الحشر ، الآيات : 1 - 6 .

(2) سورة الحشر الآية : 6 .

(3) جاء في رواية ابن إسحاق أنهما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهما .

(4) مصنف عبد الرزاق 5/ 358 - 361 .

وأخرجه الإمام البخاري بعدة روايات مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم4028-4032 (7/ 329) .

وأخرجه الإمام أبو داود من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد وذكر نحوه - سنن أبي داود ، الخراج باب 23 حديث 3004 (3/ 404) . =

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : وصف ما تعرض له المسلمون في المدينة بعد هجرتهم من قيام زعماء الكفر بمكة بتأليب الوثنيين في المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام على حرب المسلمين من داخل المدينة، وكان عبد الله بن أُبيّ ابن سلول آنذاك لم يسلم هو ومجموعة من قومه، وكاد أن يقوم هو وأتباعه بمحاربة المسلمين لولا أن النبي ﷺ نجح في إقناعهم بمخاطر قيام حرب داخل المدينة فأحجموا عن ذلك .

ولما أظهر ابن أُبيّ الإسلام بعد غزوة بدر هو وأتباعه يئس الكفار منهم فكتبوا لليهود يهددونهم بمواجهتهم بحرب مفنية إن لم يقوموا بمحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه ، وصادف ذلك هوى في نفوسهم فعزموا على الحرب ونقضوا العهد ، ولكن لما كانوا عاجزين - لجبنهم - عن مواجهة المسلمين قتاليا فإنهم لجئوا إلى سلاحهم الذي يتقنونه ولا يكلفهم مشقة كبيرة ولا ثمنا باهظا ، حيث عزموا على الغدر برسول الله ﷺ والقيام باغتياله ، وفي بالهم أنه لو تَمَّ ذلك لتفرق أصحابه وانتهت دولة الإسلام .

وأخرجه الحاكم مختصرا وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٤٨٣- .

وذكر الحافظ ابن حجر أن الحافظ ابن مردويه أخرج هذا الخبر بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهري بهذا الإسناد وذكر نحوه - فتح الباري ٧/ ٣٣١ - .

وأخرجه ابن إسحاق مع الاختلاف في بيان سبب خروج النبي ﷺ إلى بني النضير حيث ذكر أنه ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية الرجلين العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية ثم هموا بالغدر به وأن الله تعالى أخبره بما همُّوا به - سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٩ - ٢٢٥ - .

وفي هذا بيان لحجم المعاناة التي واجهها مجتمع الإسلام في أول نشوئه وفي حال قلة أفراده ، وحينما يكون العدو من داخل البلد فإن عداوته تكون أنكى ومشكلته تكون أكثر تعقيدا ، لأن الأعداء من الخارج تكون المواجهة معهم ليوم واحد أو أيام معدودة ثم ينتهي الأمر ، أما الأعداء من الداخل فإن المصيبة بهم دائمة ، والحذر منهم يجب أن يكون دائما .

ومن هذه المعاناة الشديدة ندرك حجم المخاطر التي واجهها رسول الله ﷺ وهو يقود مجتمعه الصغير بين أعداء من الخارج يصرفون طاقاتهم وأموالهم في تأليب القبائل العربية على حرب المسلمين ، ويقومون بغزو المدينة بجيوش ضخمة ، وبين أعداء من الداخل أيديهم على أكبادهم من الغيظ الشديد والحنق الأثيم ، إلى جانب ما يملكه اليهود من أموال كثيرة يبخلون بها عن المكارم ولكنهم يسخون بها في مواجهة المسلمين في حرب يرونها مصيرية .

* * *

٩- مواقف في التوكل على الله والشجاعة والعفو والصبر على الأذى- (غزوة ذات الرقاع)

قال الإمام البخاري : وقال ابن إسحاق سمعت وهب بن كيسان ، سمعت جابرا : « خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل فلقي جمعا من غطفان فلم يكن قتال ، وأخاف الناس بعضهم بعضا ، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف [١] .

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله من حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبَلَ نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه ، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضَاه[٢] ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلّق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده متكئًا فقال لي : من يمنعك مني؟ قلت : الله، فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ .

وقد جاء في رواية أخرى للإمام البخاري أن اسم هذا الأعرابي «غوْرث بن الحارث » [٣] .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٢٧ (٧/ ٤١٧) .

وانظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢٣٩ .

(٢) العضاه شجر السمر الكبار .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٣٥ و ٤١٣٦ (٧/ ٤٢٦)، وقد تقدم في غزوة ذي أمَرْ خبر مشابه - ٥/ ٣٨- إلا أن صاحب تلك القصة هو دعثور بن الحارث ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن الظاهر من كلام الواقدي أنهما قصتان في غزوتين - الفتح ٧/ ٤٢٨ - .

وأخرج محمد بن إسحاق بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين - يعني أخذها سبيَّة - فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلا ، أتى زوجها وكان غائبا ، فلما أُخبر الخبر حلف لاينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد ﷺ دما ، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ منزلا ، فقال : من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ قال : فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا : نحن يارسول الله ، قال : فكونا بفم الشعب، قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي، وهما عمار بن ياسر وعباد بن بشر فيما قال ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري : أيّ الليل تحب أن أكفيكه أوَّله أو آخره ؟ قال : بل اكفني أوَّله . قال : فاضطجع المهاجري فنام ، وقام الأنصاري يصلي ، قال: وأتى الرجل ، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم - يعني طليعة القوم - قال : فرمى بسهم فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه ، فثبت قائمًا ، قال : ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، قال : فنزعه فوضعه وثبت قائمًا ، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه ، قال : فنزعه فوضعه ، ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه - يعني أيقظه من نومه - فقال : اجلس فقد أُثبتُّ - يعني أثبتتني الجراحة - قال : فوثب فلما رآهما الرجل عرف أنهما قد نذرا به فهرب ، قال : ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من

الدماء قال : سبحان الله ، أفلا أهْبَبْتني أوَّل ما رماك ؟ قال : كنت في سورة اقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فآذنتك ، وايم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنْفذَها (١) .

في هذه الأخبار مواقف :

الموقف الأول في مبادرة النبي ﷺ إلى غزو قبيلة غطفان في مكان تجمعهم وعدم تأخير ذلك إلى أن يصلوا إلى المدينة ، وقد سبق في سرية أبي سلمة بيان محاولة قبيلة غطفان الوصول إلى المدينة لغزو أهلها ونهب ما يستطيعون من خيراتها .

وقد كان في خروج النبي ﷺ إليهم في مكان تجمعهم أقوى رادع لهم عن التفكير مرة أخرى في غزو المدينة .

الموقف الثاني : في اتصاف النبي ﷺ بالتوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في النصر على الأعداء ، فحينما قال له غورث بن الحارث : من يمنعك مني ؟ قال : الله ، وهذا يعتبر درسًا للأمة في اللجوء إلى الله سبحانه واستمداد النصر منه وحده .

الموقف الثالث : في اتصاف النبي ﷺ بالشجاعة الفذة ورباطة الجأش ، حيث كان ثابت القلب هاديء النفس والسيف في يد عدوه مصلتا وهو مجرد من السلاح .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٥ .

وقال الحافظ ابن حجر : وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطني وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم - فتح الباري ١/ ٢٨١ .

الموقف الرابع : في اتصاف النبي ﷺ بالعفو عند المقدرة ، فقد عفا عن ذلك الأعرابي وهو مستحق العقوبة ، والعفو عند المقدرة خصلة عظيمة لايقدر عليها إلا الكاملون من الرجال .

ولاشك أن لهذا الخلق الكريم أثرًا بالغًا في الدعوة إلى الإسلام ، فقد جاء في بعض روايات هذا الخبر أن ذلك الأعرابي أسلم وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير[1] .

الموقف الخامس : في الخبر الأخير مثل واضح على قوة الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى لدى الصحابة رضي الله عنهم ، كما أنه يدل على عنايتهم بالصلاة وأنها أغلى عندهم من أنفسهم وأموالهم ، وهذه الصلاة التي عُمرت بالخشوع وكُلِّلت بحضور القلب مع الله تعالى هي الصلاة المؤثرة ، التي أنجبت أبطالا عظماء كهؤلاء الصحابة الكرام ، فعلى قدر ما يعطونه ربهم جل جلاله في الليل من الخضوع والتذلل وتجريد القلب لعبادته يعطيهم بالنهار من القوة على مكابدة الأعداء ومواجهة الشدائد ، ولذلك لانجد في الأمر غرابة إذا وجدناهم ينامون قليلا من الليل ويواجهون عدوهم مع انبلاج الفجر بعزائم قوية وهمم عالية تفوق طاقة الكفار بأضعاف ، مع أن أعداءهم قد أخذوا قسطا أكبر بكثير من النوم والراحة ، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم كما جاء في وصفهم « عُبَّاد في الليل فرسان في النهار » .

ونلاحظ في هذا الخبر أن عَبَّاد بن بشر قد أغفل من حساب فكره النظر إلى مستقبل أولاده وأهله وأمواله فيما إذا أصيب واستشهد ، وإنما

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٢٨ .

كان يوازن النظر حينما رماه ذلك الرجل بين أمرين : أن يكمل السورة التي بدأها أو أن يقطعها ليوقظ أخاه عمارا حتى لايضيِّع المهمة الكبيرة التي أناطها به رسول الله ﷺ ، وكلا الأمرين من أمور الآخرة، وبهذا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يحسبون للدنيا حسابا في تفكيرهم وإنما كان تفكيرهم منحصرا في أعمال الآخرة .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن عباد بن بشر الأشهلي الأنصاري لم يستشهد في ذلك اليوم فقد برئ من جراحه ، وإنما استشهد في معركة اليمامة رضي الله عنه .

* * *

١٠ – مواقف في غزوة بدر المَوْعد –

قال الواقدي وكانت لهلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهرًا ، وغاب رسول الله ﷺ فيها ستَّ عشرة ليلة ، ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من ذي القعدة ، واستخلف على المدينة ابنَ رَواحة .

ثم أخرج عن عدد من الشيوخ أنهم قالوا : لمّا أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أُحُد نادى : موعدٌ بيننا وبينكم بَدر الصَّفْراء رأس الحَول، نلتقي فيه فنقتتل . فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : قل نعم إن شاء الله .

فافترق الناس على ذلك ، ورجعت قُريش فخبّروا من قبَلَهم با لموعد وتهيّئوا للخروج وأجلبوا (١) .

وكان هذا عندهم أعظم الأيام لأنهم رجعوا من أُحُد والدولة لهم، طمعوا في بَدر الموعد أيضًا بمثل ذلك من الظفَر .

وكان بَدر الصَّفْراء مَجمعًا يجتمع فيه العرب ، وسوقًا تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليال خلون منه ، فإذا مضت ثماني ليال منه تفرّق الناس إلى بلادهم . فلما دنا الموعد كَره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وجعل يُحبّ أن يُقيم رسول الله وأصحابه بالمدينة ولا يُوافقون الموعد . فكان كل من ورد عليه مكّةَ يُريد المدينة أظهر له : إنا نُريد أن نغزوا محمّدًا في جَمع كَثيف . فَيَقْدم القادم على أصحاب رسول الله ﷺ فيراهم على تجهُّز فيقول : تركتُ أبا سُفيان قد جمع الجموع ، وسار في العرب ليسير إليكم لموعدكم . فيكره ذلك المسلمون ويُهيّبهم ذلك .

---

(١) أجلبوا : تجمعوا وتألبوا . (النهاية ، ج١ ، ص ١٦٩) .

ويقدم نُعَيم بن مَسعود الأشْجَعي مكة ، فجاءَه أبو سُفيان بن حرب في رجال من قُريش فقال : يا نُعَيم ، إني وعدت محمداً وأصحابه يوم أُحُد أن نلتقي نحن وهو ببدر الصَّفراء على رأس الحول ، وقد جاء ذلك . فقال نعيم : ما أقدمني إلاَّ ما رأيتُ محمّدًا وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكُراع ، وقد تجلَّب إليه حلفاءُ الأوس من بَلي وجُهَيْنَة وغيرهم، فتركت المدينة أمس وهي كَالرُّمانَة .

فقال أبو سفيان : أحقًا ما تقول ؟ قال : إي والله . فجَزَوا نُعَيمًا خيراً ووصلوه وأعانوه ، فقال أبو سُفيان : أسمعُك تذكر ما تذكر ماقد أعدّوا وهذا عام جَدْب .

قال نُعيم : الأرض مثل ظهر التُّرس ، ليس فيها لبعير شيءٌ . قال أبو سفيان : وإنما يُصلحنا عام خصْب غَيداق[1] ترعى فيه الظَّهر والخيل ونشرب اللبن ، وأنا أكره أن يخرج محمّدٌ وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا ، ويكون الخُلف من قبلهم أحبَّ إلي . ونجعل لك عشرين فَريضة ، عشراً جذاعًا[2] وعشراً حقاقًا [3] ، وتُوضَع لك على يَدَي سُهيل بن عمرو ويضمنها لك . قال نُعيم : رضيتُ . وكان سُهيل صديقًا لنُعيم فجاءَ سُهيلاً فقال : يا أبا يزيد ، تضمن لي عشرين فَريضة على أن أقدم المدينة فأُخذّل أصحاب محمّد ؟ قال : نعم . قال : فإني خارج .

---

(١) غيداق : واسع مخصب . (لسان العرب ، ج١٢ ، ص ١٥٦) .

(٢) الجذاع : جمع الجذع ، وهو من الإبل مادخل في السنة الخامسة . ومن البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية . (النهاية ، ج١ ، ص ١٥٠) .

(٣) الحقاق : جمع الحقة ، وهو من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها وسمى بذلك لأنه استحق الركوب (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٤٤) عن هامش المغازي .

فخرج على بعير حملوه عليه . وأسرع السير فقدم وقد حلق رأسه معتمرًا فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهّزون ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من أين يانُعيم ؟ قال : خرجت معتمرًا إلى مكة . فقالوا : لك علمٌ بأبي سفيان ؟ قال : نعم ، تركت أبا سُفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب ، فهو جاء فيما لاقبَلَ لكم به ، فأقيموا ولاتخرجوا فإنهم قد أتوكم في داركم وقَراركم ، فلن يُفلت منكم إلا الشريد ، وقُتلت سراتكم وأصاب محمّدًا في نفسه ما أصابه من الجراح . فتُريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض ؟ بئس الرأي رأيتم لأنفسكم - وهو موسم يجتمع فيه الناس - والله ما أرى أن يُفلت منكم أحد ! وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعَّبهم وكرّه إليهم الخروج ، حتى نطقوا بتصديق قول نُعيم ، أو من نطق منهم .

واستبشر بذلك المنافقون واليهود وقالوا : محمّدٌ لايُفلت من هذا الجمع ! واحتمل الشيطان أولياءَه من الناس لخوف المسلمين ، حتى بلغ رسول الله ﷺ ذلك ، وتظاهرت به الأخبار عنده ، حتى خاف رسول الله ﷺ ألاّ يخرج معه أحد . فجاءَه أبو بكر بن أبي قُحافة رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد سمعا ما سمعا فقالا : يارسول الله إن الله مُظهرٌ دينه ومُعزٌّ نبيّه ، وقد وعدْنا القوم موعدًا ونحن لا نُحبُّ أن نتخلف عن القوم . فيرون أن هذا جبن منَّا عنهم ، فَسِرْ لموعدهم ، فو الله إنَّ في ذلك لخيرة ! فُسرّ رسول الله ﷺ بذلك ثم قالَ : والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد ! قال : فلما تكلَّم رسول الله ﷺ تكلَّم بما بصّر الله عز وجل المسلمين ، وأذهب ما كان رعَّبهم الشيطان ، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بَدر .

ثم إن أبا سُفيان قال . يامعشر قُرَيش ، قد بعثنا نُعَيم بن مَسعود لأن يُخذّل أصحابَ محمد عن الخروج وهو جاهد ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتَيْن ثم نرجع ، فإن كان محمدٌ لم يخرج بلغه أنّا خرجنا فرجعنا لأنه لم يخرج ، فيكون هذا لنا عليه ، وإن كان خرج أظهرنا أنَّ هذا عام جَدْب ولا يُصلحنا إلا عامُ عشب . قالوا : نعْمَ ما رأيت . فخرج في قريش . وهم ألفان ومعهم خمسون فرسًا . حتى انتهوا إلى مَجَنَّة[1] ثم قال : ارجعوا ، لا يُصلحنا إلا عام خصْب غيداق ، نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وإنَّ عامكم هذا عام جَدْب ، وإني راجع فارجعوا . فسمّى أهل مكَّة ذلك الجيش جيش السَّويق ، يقولون : خرجوا يشربون السَّويق .

وكان يحمل لواءَ رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ عَلي بن أبي طالب رضي الله عنه . وأقبل رجلٌ من بني ضَمْرَة يقال له مَخشيّ بن عمرو ، وهو الذي حالف رسول الله ﷺ على قومه في غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى وَدّان فقال - والناس مجتمعون في سوقهم و أصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل ذلك الموسم - فقال : يامحمد لقد أخبرْنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمكم إلا أهل الموسم ، فقال رسول الله ﷺ - ليرفع ذلك إلى عدوّه من قُريش - : ما أخرجنا إلاَّ موعدُ أبي سُفيان وقتالُ عدوّنا ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهدَ . ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا . فقال الضَّمْري : بل نكفّ أيدينا عنكم ونتمسك بحلْفك .

---

(١) مجنة : موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مر الظهران (معجم البلدان ، ج٧ ، ص٣٨٩) .

وسمع بذلك مَعْبَد ابن أبي مَعبد الخُزاعي فانطلق سريعًا . وكان مُقيمًا ثمانية أيام ، وقد رأى أهل الموسم ورأى أصحاب رسول الله ﷺ ، وسمع كلام مخشي ، فانطلق حتى قدم مكة . فكان أوّل من قدم بخبر موسم بَدر . فسألوه فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد ، وأنهم أهل ذلك الموسم ، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضَّمْري ، وقال : وافَى محمدٌ في ألفَين من أصحابه ، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدّع أهل الموسم. فقال صفوان بن أمية لأبي سُفيان : قد والله نهيتُك يومئذ أن تَعدَ القوم ، وقد اجترؤوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم ، وإنما خلَّفنا الضعف عنهم .

فأخذوا في الكَيْد والنفقة في قتال رسول الله ﷺ واستجلبوا من حولهم من العرب ، وجمعوا الأموال العظام ، وضربوا البعث على أهل مكة ، فلم يُترك أحدٌ منهم إلا أن يأتي بما قل أو كَثُر ، فلم يُقْبَل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخَنْدَق (١) .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

في هذا الخبر ظهرت أخلاق المسلمين وأخلاق الكفار ، وظهر مَن المنتصر حقا في معركة أحد ومن المنهزم ، فقد ظهرت شجاعة المسلمين العالية وإقدامهم على المكاره ، ووفاؤهم بالوعد ، كما ظهر جبن الكفار وفشلهم .

وظهر أن المنتصر حقا في معركة أحُد هم المسلمون لأنهم خرجوا

(١) مغازي الواقدي ١/ ٣٨٤ - ٣٨٩ .

وأخرجه ابن إسحاق مختصرا - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٧ - .

للقتال بعد سنة بنفوس وثابة ومعنويات عالية ، بينما تقاعس الكفار وجبنوا ، وصاروا يبذلون من أموالهم لمن يخذِّل رسول الله ﷺ وأصحابه عن الخروج ليكون النكول من المسلمين حتى لايفتضح المشركون أمام العرب ، وليحتفظوا بنتائج معركة أحد التي وهموها نصراً وليست كذلك .

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رؤوسهم وأصبحوا مثار السخرية عند العرب ، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أُحد وسقوط القتلى منهم لايعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري .

ولقد ظهر في هذا الخبر مثل من حزم النبي ﷺ وقوة عزيمته وصدقه ووفائه وإدراكه الدقيق لعوامل القوة والانتصار ، وعوامل الضعف والانهزام ، حيث قال لمستشارَيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : «والذي نفسي بيده لأخرجنَّ وإن لم يخرج معي أحد » وذلك حينما أُشيع في أوساط المسلمين كراهية بعضهم للخروج .

وفي هذا الخبر ظهر إرجاف اليهود والمنافقين بسبب ما قام به نعيم بن مسعود الغطفاني من السفارة لصالح قريش حيث بثَّ دُعاية إعلامية واسعة عن ضخامة جيش المشركين الذي أعدوه لتلك الغزوة ، فنطق اليهود والمنافقون بكلمات التخذيل والإرجاف ، حيث قالوا : محمد لايفلت من هذا الجمع ، ولكن مع الإرجاف الكبير من خارج المدينة وداخلها فإن حماس المسلمين لم يفتر وعزيمتهم لم تضعف ومعنويتهم الحربية ظلت عالية بمجرد سماعهم عن عزم النبي ﷺ على الخروج وهذا

يعتبر مثلا عاليا في الطاعة والتسليم لأوامر الله جل وعلا ورسوله ﷺ .

وموقف يذكر لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما حينما أشارا على رسول الله ﷺ بالخروج في الوقت الذي بلغت فيه الدعاوى الإعلامية ذروتها وتأثر بها بعض أفراد المسلمين .

ويصل المسلمون إلى بدر ويشاركون الناس في الموسم التجاري ، ويصبحون أعظم الوفود كثرة ، ثم يعودون بعد ثمانية أيام وقد سلموا من الأذى ، وكسبوا انتصارا معنويا عظيما على أعدائهم بدون قتال ، كما أنهم ربحوا في تجاراتهم ربحا طيبًا كما ذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه .

* * *

١١ - مواقف في غزوة دُومَة الجَنْدَل -

قال الواقدي : في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً. خرج رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من ربيع الأول ، وقدم لعشر بقين من ربيع الآخر .

فحدّثني ابن أبي سَبْرةَ عن عبد الله بن أبي لَبيد ، عن أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن . وحدّثني عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن أبي بكر ، فكلاهما قد حدّثنا بهذا الحديث ، وأحدهما يزيد على صاحبه، وغيرهما قد حدّثنا أيضًا .

قالوا : أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام ، وقيل له إنها طَرف من أفواه الشام ، فلو دنوت لها كان ذلك مما يُفزع قَيْصَر . وقد ذُكر له أنّ بدُومة الجَندل جمعًا كثيراً ، وأنهم يظلمون من مرّ بهم من الضَّافطَة[١] ، وكان بها سوقٌ عظيمٌ وتجّار ، وضوَى إليهم قومٌ من العرب كثير ، وهم يُريدون أن يدنوا من المدينة .

فَنَدب رسول الله ﷺ الناس ، فخرج في ألف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكْمُن النهار ، ومعه دليلٌ له من بني عُذْرَة يقال له مَذكورٌ ، هاد خرِّيت ، فخرج رسول الله ﷺ مُغذّاً للسير ، ونكب عن طريقهم ، ولمّا دنا رسول الله ﷺ من دُومة الجَنْدَل - وكان بينه وبينهما يوم أو ليلة سَيْرَ الراكب المُعْنق[٢] - قال له الدليل : يارسول الله ، إنَّ سوائمهم ترعى

(١) الضافطة : جمع ضافط ، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن ، والمكارى الذي يكرى الأحمال وكانوا يومئذ قوما من الأقباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت . (النهاية، ج٣، ص٢٢) .

(٢) أعنق الراكب فرسه إذا أعجلها . (القاموس المحيط ، ج٣ ، ص ٢٦٢) .

فأقم لي حتى أطّلع لك . قال رسول الله ﷺ : نعم .

فخرج العُذريّ طليعةً حتى وجد آثار النَّعَم والشاء وهم مُغرّبون ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره وقد عرف مواضعهم ، فسار النبي ﷺ حتى هجم على ماشيَتهم ورعائهم ، فأصاب رسول الله ﷺ من أصاب ، وهرب من هرب في كلّ وجه .

وجاءَ الخبر أهلَ دُومة الجَنْدَل فتفرّقوا ، ونزل رسول الله بساحتهم ، فلم يجد بها أحدًا ، فأقام بها أيّامًا وبثَّ السرايا وفرّقها حتى غابوا عنه يومًا ثم رجعوا إليه ، ولم يُصادفوا منهم أحدًا ، وترجع السريّة بالقطعة من الإبل ، إلا أنَّ محمد بن مَسْلَمَة أخذ رجلاً منهم ، فأتى به النبي ﷺ فسأله عن أصحابه فقال : هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نَعَمهم . فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام أيّامًا فأسلم ، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة ، وكان رسول الله ﷺ استعمل على المدينة سباعَ بن عُرْفُطَة [1] .

مواقف في هذا الخبر :

هذا الخبر يدلنا على دقة الرصد الحربي عند المسلمين في العهد النبوي حيث علم الرسول ﷺ بما همَّ به أهل دومة الجندل من الزحف على المدينة ومهاجمة المسلمين ، فقام بهذه الغزوة الموفقة التي أدت إلى تلك النتائج الطيبة لصالح المسلمين .

ويظهر في هذا الخبر براعة النبي ﷺ في الإدارة الحربية حيث وصل

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٤٠٢ - ٤٠٤ ، والتعليقات من هامش هذا الكتاب .

وأخرجه ابن إسحاق مختصرا - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٢ - .

إلى دومة الجندل في أقصى شمال الجزيرة وهو يقود جيشا كبيرا نسبيا فلم يعلم به أهل تلك البلاد حتى فاجأهم قبل أن يجتمعوا له ويُعدوا العدة للقائه . وبهذه الإدارة الحكيمة جنَّب النبي ﷺ أصحابه خوض معركة قد تكون شاقة عليهم مع حصول المسلمين على المكاسب الحربية التي أرادوها ، من إضعاف عدوهم معنويا وماديا ، وإرهابهم حتى لايفكروا مرة أخرى بغزو المسلمين .

* * *

١٢ - مواقف في غزوة المريسيع -

أخـرج الواقـدي بإسناده عن عـدد من الشيـوخ قـالوا : إنَّ بَني الْمُصْطَلق من خُزاعة كانوا ينزلون ناحية الفُرْع [١] ، وهم حلفاء في بني مُدْلج ، وكان رأسهم وسيّدهم الحارث بن أبي ضرار ، وكان قد سار في قومه ومن قَدَر عليه من العرب ، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، فابتاعوا خيلاً وسلاحًا وتهيؤوا للمسير إلى رسول الله ﷺ . وجعلت الركبان تَقْدم من ناحيتهم فيُخبرون بمسيرهم ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فبعث بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلميّ يعلم علْم ذلك ، واستأذن النبي أن يقول[٢] فأذن له ، فخرج حتى ورد عليهم ماءَهم ، فوجد قومًا مغرورين قد تألّبوا وجمعوا الجموع ، فقالوا : مَن الرجل ؟ قال : رجلٌ منكم ، قدمت لما بلغني عن جمعكم لهذا الرجل ، فأسير في قومي ومن أطاعني فتكون يَدُنا واحدةً حتى نستأصله . قال الحارث بن أبي ضرار : فنحن على ذلك ، فعَجِّلْ علينا . قال بُرَيدة : أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعني . فسرّوا بذلك منه ، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم ، فندب رسول الله ﷺ الناس ، وأخبرهم خبر عدوّهم فأسرع الناس للخروج .

قالوا : وخرج مع رسول الله ﷺ بَشَرٌ كثيرٌ من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قَطُّ مثلها ، ليس بهم رغبةٌ في الجهاد إلا أن يُصيبوا من عَرَض الدنيا ، وقرُب عليهم السفر .

فخرج رسول الله ﷺ حتى سلك على الحَلائق فنزل بها ، فأُتيَ

(١) يعني بين مكة والمدينة .

(٢) يعني أن يقول خلاف الحقيقة إيهامًا لهم .

يومئذ برجل من عبد القيس ، فسلَّم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أين أهلُك ؟ قال : بالرَّوْحاء . قال : أين تُريد ؟ قال : إيّاك جئت لأُومن بك وأشهد أن ماجئتَ به الحقّ ، وأُقاتل معك عدوّك . قال له رسول الله ﷺ : الحمد لله الذي هداك للإسلام . قال : يارسول الله ، أيّ الأعمال أحبّ إلى الله ؟ قال : الصلاة في أوّل وقتها . قال : فكان الرجل بعد ذلك يُصلّي حين تزيغ الشمس ، وحين يدخل وقت العصر ، وحين تغرُب الشمس ، لايُؤَخر الصلاة إلى الوقت الآخر .

قال : لما نزل ببَقْعاء أصاب عينا للمشركين فقالوا له : ماوراءك؟ أين الناس ؟ قال : لا علم لي بهم .

قال : فحدثني هشام بن سعد ، عن يعقوب ، عن زيد بن طلحة ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لتصدُقنّ أو لأضربن عنقك . قال : فأنا رجلٌ من بَني الْمُصْطَلق ، تركت الحارث بن أبي ضرار قد جمع لكم الجموع ، وتجلَّب إليه ناسٌ كثير ، وبعثني إليكم لآتيه بخبركم وهل تحرّكتم من المدينة . فأتى عمر بذلك رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام وعرضه عليه ، فأبى وقال : لست بُمتَّبع دينكم حتى أنظر ما يصنع قومي ، إن دخلوا في دينكم كنت كأحدهم ، وإن ثبتوا على دينهم فأنا رجلٌ منهم . فقال عمر : يارسول الله ، أضرب عنقه ؟ فقدّمه رسول الله فضرب عنقه ، فذهب الخبر إلى بَني الْمُصْطَلق .

فكانت جُوَيرية بنت الحارث تقول بعد أن أسلمت : جاءَنا خبره ومقتله ومسير رسول الله ﷺ قبل أن يقدَم علينا النبي ﷺ فَسيءَ أبي ومن

معه وخافوا خوفًا شديدًا ، وتفرّق عنهم من كان قد اجتمع إليهم من أفْناء العرب ، فما بقي منهم أحدٌ سواهم .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسيع وهو الماءُ فنزله ، وضُرب لرسول الله ﷺ قُبّةٌ من أدَم ، ومعه من نسائه عائشة وأمّ سَلَمَة . وقد اجتمعوا على الماء وأعدّوا وتهيَّؤوا للقتال ، فصفّ رسول الله ﷺ أصحابه ، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وراية الأنصار إلى سعد بن عُبادة رضي الله عنه ، ويقال كان مع عَمّار بن ياسر رضي الله عنه رايةُ المهاجرين .

ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنادى في الناس : قولوا لا إله إلا الله ، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم . ففعل عمر رضي الله عنه فأبَوا . فكان أوّل من رمى رجلٌ منهم بسهم ، فرمى المسلمون ساعةً بالنبل ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا ، فحملوا حملةَ رجل واحد فما أفلت منهم إنسان ، وقُتل عشرةٌ منهم وأُسر سائرهم . وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذُّرّيّة ، وغُنمت النَّعمُ والشاء ، وما قُتل أحدٌ من المسلمين إلاّ رجلٌ واحد .

وكان أبو قَتادة يُحدّث قال : حمل لواءَ المشركين يومئذ صَفوان ذو الشُّقْر ، فلم تكن لي بأُهْبَة حتى شددتُ عليه وكان الفتح . وكان شعارهم : يامَنصور ، أمتْ أمتْ ! (١) .

وأخرج ابن إسحاق خبر هذه الغزوة باختصار ، ثم قال : وكان رسول الله ﷺ قد أصاب منهم سَبْيا كثيرًا ، فشا قَسْمُه في المسلمين ،

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٤٠٤ - ٤٠٧ .

وكان فيمن أُصيب يومئذ من السَّبايا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، زوجُ رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُروة بن الزبير ، عن عائشة ، قالت : لما قَّسم رسولُ الله ﷺ سبايا بني المُصْطلق، وقعتْ جوُيرية بنت الحارث في السَّهم لثابت بن قيس بن الشَّماس، أو لابن عمّ له فكاتَبَتْه على نفسها ، وكانت امرأة حُلْوَةً مُلاحة ، لايراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسولَ الله ﷺ تَسْتعينه في كتابتها .

قالت عائشة : فو الله ماهو إلا أن رأيتُها على باب حُجرتي فكَرهتها، وعَرَفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيتُ ، فدخلتْ عليه فقالت : يارسول الله ، أنا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البَلاء مالم يَخْفَ عليك ، فوقَعْتُ في السّهم لثابت بن قَيس بن الشَّماس - أو لابن عمّ له - فكاتبتُه على نفسي ، فجئتك أسْتعينك على كتابتي ، قال فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت وماهو يارسول الله؟ قال : أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك، قالت : نعم يارسول الله، قال : قد فعلت .

قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسولَ الله ﷺ قد تزوج جُويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار ، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت : فلقد أُعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المُصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظمَ على قومها بركةً منها (١) .

وأخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - من حديث عبد الله بن عون

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧٧ - ٣٧٨ .

قال : كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال ، قال : فكتب إليّ : إنما كان ذلك في أول الإسلام ، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون (1) ، وأنعامهم تسقي على الماء فقتل مقاتلتهم وسبَى سبيهم ، ثم قال : حدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش (2) .

وقوله « وهم غارُّون » يعني أنه لم ينذرهم وإنما غزاهم على سبيل المباغته ، وذلك لأنهم أوَّلاً قد بلغتهم الدعوة ، وثانيًا لأنهم قد أعلنوا حرب المسلمين وصاروا يجمعون جيوشهم لغزو المدينة .

وقوله « فقتل مقاتلتهم » بيان لنتيجة المعركة حيث إن هذه الرواية مجملة تبينها الروايات السابقة .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

في الفترة التي تلت غزوة أحد كثرت محاولات القبائل العربية غزو المسلمين في المدينة ، وقد بدأت هذه المحاولات من بني أسد وأرسل لهم الرسول ﷺ أبا سلمة في سرية ، ثم كانت محاولة خالد بن نُبيح الهذلي فعاجله النبي ﷺ بالقتل وهو في بلاده على يد عبد الله بن أُنيس ، ثم كانت محاولة قبيلة غطفان فخرج إليهم النبي ﷺ وعاجلهم في غزوة ذات الرقاع قبل أن يجتمعوا ، ثم كانت محاولة أصحاب دومة الجندل فغزاهم النبي ﷺ وعاجلهم قبل أن يجتمعوا ، وقد سبقت أخبار هذه

---

(1) أي غافلون .

(2) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٣٠ (ص ١٣٥٦) .
صحيح البخاري ، العتق ، رقم ٢٥٤١ (٥/ ١٧٠) .

الغزوات والسرايا ، وكانت نتائجها جميعا لصالح المسلمين ، وأخيراً جرت محاولة بني المصطلق التي جاءت في هذا الخبر .

ولقد كان الدافع لهذه المحاولات ما بثه مشركو مكة من دعايات واسعة ومبالغات عن حجم إصابة المسلمين في أحد ، فكان هناك طمع من عدد من القبائل في غزو المدينة مادام أهلها في حال ضعف .

ولقد كان النبي ﷺ مدركا لمخاطر تلك الدعايات السيئة ، ومن أجل تفادي تلك المخاطر قام بمغامرة ملاحقة المشركين إلى حمراء الأسد ثاني يوم من معركة أحد على ما به وبأصحابه من الجراح ، ولقد كان لتلك الغزوة أثرها الواضح في صد مشركي مكة عن العودة إلى المدينة كما سبق ، إضافة إلى ما كان لها من أثر في إرهاب الأعداء داخل المدينة والقبائل المحيطة بها ، ولكن دعايات الكفار القوية قد لبّست الأمر على القبا ئل البعيدة فظنوا أن أهل المدينة قد أصبحوا صيداً سميناً سائغًا للمصطادين ، وأن المفلح هو من يسبق لهذا الصيد فقاموا بتلك المحاولات التي تمت خلال تلك الفترة .

ولقد كان النبي ﷺ ناجحًا كل النجاح في معاجلة بني المصطلق قبل أن يزحفوا على المدينة وقبل أن يتكوّن له جمع كبير ، كما أن طليعة المسلمين كانوا في غاية الحذر والنباهة حينما قبضوا على عين الأعداء قبل أن يقوم بمهمته ، وكان قتله هو الحكمة لئلا يفلت من المسلمين فيخبر أعداءهم بهم .

ولقد قام النبي ﷺ بالاحتياطات اللازمة لمعرفة خبر الأعداء حتى

لايهاجمهم المسلمون وهم برآء مما نسب إليهم ، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه ليعلم خبرهم ، وقد صارحه زعيمهم بمرادهم في غزو المسلمين في المدينة بعد أن خدعه بريدة وأخفى عليه مهمته الحقيقية .

* * *

١٣ - حدثان مهمان في هذه الغزوة -

أ - دعوة إلى العصبية ومواجهة حكيمة

قال ابن إسحاق : فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء ، وردت واردةُ الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار ، يقال له : جَهْجاه بن مسعود يقود فرَسه ، فازدحم جَهجاه وسنان بن وَبَر الُجهني ، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجُهني : يامعشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ، فغضب عبدُ الله بن أُبَيّ ابن سَلول ، وعنده رهط من قومه فيهم : زيد بن أرقم ، غلام حَدَثٌ ، فقال : أوَقَدْ فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أُعُدُّنا وَجلابيب قريش إلا كما قال الأوّل : سَمِّنْ كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعّز منها الأذلّ . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحلَلْتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمْسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عُمر بن الخطاب ، فقال : مُرْ به عَبَّاد بن بشر فَليقتله ، فقال له رسولُ الله ﷺ : كيف ياعمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتلُ أصحابه! لا ولكن أذِّن بالرَّحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناسُ .

وقد مشى عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول إلى رسول الله ﷺ ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ماسمع منه ، فحلف بالله : ماقلت ما قال ،

ولاتكلمت به - وكان في قومه شريفًا عظيمًا - فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يارسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوْهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حَدَبا على ابن أُبَيّ ابن سَلول ، ودَفْعًا عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل[1] رسولُ الله ﷺ وسار، لقيه أُسَيد بن حُضَيْر ، فحيَّاه بتحية النبوّة وسلَّم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ، والله لقد رُحتَ في ساعة مُنكرة ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسولُ الله ﷺ : أو ما بَلغَك ما قال صاحبُكم ؟ قال : وأيّ صاحب يارسول الله؟ قال : عبد الله بن أُبيّ ، قال : ومَاقال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يارسول الله والله تُخرجه منها إن شئت ، هو الذليلُ وأنت العزيز ، ثم قال : يارسول الله ، ارفُقْ به ، فو الله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لَينظمون له الخَرز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذَتهُم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وَجَدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياما ، وإنما فعل رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله ﷺ بالنَّاس ، وسَلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فُوَيق النقيع ، يقال له : بَقعاء ، فلما راح رسولُ الله ﷺ هبَّت

---

(١) أي ارتحل .

على الناس ريحٌ شـديدة آذتهم وتخـوّفـوها ، فـقـال رسـول الله ﷺ : لاتخافوها ، فإنما هبَّت لموت عظيم من عُظماء الكُفَّار ، فلمّا قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت ، أحَدَ بني قينقاع ، وكان عظيما من عُظماء يهود ، وكهفًا للمُنافقين ، مات في ذلك اليوم (١) .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أُبيّ ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذَ رسولُ الله ﷺ بأذن زَيْد بن أرقم ، ثم قال : هذا الذي أوْفى الله بأذنه . وبلغ عبدَ الله بنَ عبد الله بنِ أُبيّ الذي كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق : فحدّثني عاصمُ بن عُمر بن قتادة : أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله ابن أُبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلا فُمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس ، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : بل نَترفَّق به ، ونُحْسن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدثَ كان قومه هم الذين يُعاتبونه ويأخذونه ويُعنِّفُونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي

---

(١) وهو ممن دخلوا في الإسلام نفاقا من يهود بني قينقاع - سيرة ابن هشام ٢/ ١٦٦ - .

وقد جاء خبر هذه الريح في صحيح مسلم من حديث جابر وأن النبي ﷺ قال : «بعثت هذه لموت منافق» ولكن لم يذكر اسمه ولا اسم الغزوة - صحيح مسلم رقم ٢٧٨٢ ، كتاب صفة المنافقين - .

اقتله، لأرْعدت له آنُفٌ[1] ، لو أمرتها اليوم بقَتله لقتلَته ، قال : قال عمر : قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : مثل من عداوة المنافقين المتأصلة في نفوسهم للمؤمنين ، حيث انتهز عبد الله بن أبي ابن سلول فرصة الخلاف الذي نشأ بين رجلين من المسلمين ليثير الدعوة إلى العصبية القبلية ، فنطق بكلمات خبيثة في سب المهاجرين من قريش والتنقيص منهم ، مع أن ذلك الرجل المهاجر الذي اختصم مع حليف الأنصار ليس من قريش وإنما هو من غفار ، ولكن زعيم المنافقين صب جام غضبه على المهاجرين من قريش لأنهم عصبة النبي ﷺ الأولى وأصل الدعوة الإسلامية .

وهكذا يغلي الحقد في قلوب المنافقين ، فتظهر نفثاته على فلتات ألسنتهم ظانين أن كلامهم سيظهر مفعوله في التفريق بين المؤمنين .

ثانيًا : موقف إيمان وشجاعة لزيد بن أرقم رضي الله عنه حيث مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك الكلام السيء الذي سمعه من ابن أُبي ، مع أن زيدا كان غلاما ، ومن كان في مثل هذه السن لاينتظر منه

---

(١) جمع أنف ، وهو علامة على الغضب الشديد ، والمعنى : لغضب له رجال من قومه .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧٠ - ٣٧٥ .

وأخرجه الإمام البخاري بروايتين مختصرا - صحيح البخاري ، التفسير ، رقم ٤٩٠٤، ٤٩٠٥ (٨/ ٤٦٨) .

وأخرجه الإمام الحميدي بروايتين مختصرا - مسند الحميدي ٢/ ٥١٩ - ٥٢٠ ، رقم ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ .

غالبا الدخول مع الكبار في صراع ، خاصة في مثل وضع ابن أُبي الذي ما زال له أنصار يقولون برأيه ويدافعون عنه .

ولقد شكره النبي ﷺ على هذا الموقف الشجاع وعلى مقدرته على استيعاب ماسمع ، كما جاء في رواية الإمام البخاري أن النبي ﷺ أرسل إليه بعد نزول سورة (المنافقون) فقرأها عليه وقال : إن الله قد صدقك .

ثالثًا : في المحاورة التي جرت بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه مثل من غيرة عمر الإسلامية وحرصه على إخماد الشر وأهله ، ولكنَّ رأي رسول الله ﷺ كان أعلى وحكمته كانت أعظم فقد رأى بما ألهمه الله تعالى أن قتل عبد الله بن أبي وأمثاله يؤثر على سير الدعوة الإسلامية ، فابن أبي معدود عند العرب من أصحاب النبي ﷺ ، فلو قتله لَنَفَرَ الناس وصدوا عن الدخول في الإسلام ، حينما يتحدثون أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه .

وإن في هذا التصرف النبوي الحكيم توجيها لدعاة المسلمين وقادتهم إلى لزوم الاهتمام بقضايا الدعوة الإسلامية ، وأن يكون من الأهداف العالية التي يجعلها المسلم نصب عينيه أن يحاول اجتذاب الناس إلى الإسلام ، وأن يبتعد كل البعد عن الأمور التي تنفِّر الناس من الدخول في الإسلام أو الاستقامة عليه ، مالم يرتكب إثما .

ولقد تَجَلَّتْ حكمة النبي ﷺ في هذا الأمر حينما جاء عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ يعرض على رسول الله ﷺ استعداده للإقدام على قتل أبيه ، ويبين أنه لو أقدم على قتله غيره فإنه لايأمن من حدوث فتنة بسبب ذلك ، بينما حصل المقصود من قوم ابن أبي وذلك حينما تولوا عتابه

وتعنيفه وردْعه عن التجاوزات التي يمارسها من غير أن يتعرض مجتمع المؤمنين لفتنة بسببه .

ولقد ذكَّر النبي ﷺ عمر بهذه النتائج الحميدة بقوله « كيف ترى ياعمر؟ أما والله لو قتلْته يوم قلت لي اقتله لأُرعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » ، وأدرك عمر هذه الحكمة العظيمة فقال : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري .

ومن هذا نعلم أن تصرف النبي ﷺ الحكيم قد صدَّ فتنة كانت وشيكة الوقوع في المدينة لو أن الرسول ﷺ عامل زعيم المنافقين بما يستحق من عقوبة ، إلى جانب محافظته على سمعة الدعوة الإسلامية خارج المدينة أن تُشوَّه من قبل أعداء الإسلام أو ممن يجهل واقع المسلمين .

رابعًا : في تصرف النبي ﷺ في مواجهة تلك الفتنة في حينها حكمة بالغة ، فقد عالج الفتنة التي أثارها عبد الله بن أبيّ بأمر شغل به المسلمين عن الحديث عنها ، وذلك حيث أمر المسلمين بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه ، ثم واصل المسير يومه وليلته وصدر اليوم التالي، حتى إذا نزلوا وقد أعياهم السير والسهر وقعوا نياما ، فلم يكن لديهم فراغ للحديث عن الموضوع ، وهذا يعتبر درسا نبويا عاليا للقادة في كيفية القضاء على المشكلات التي تعرض لهم ، والفتن التي يثيرها أعداء الإسلام في صفوف المسلمين ، فالنفوس إن لم تُشغَل بما ينفعها شُغلَتْ بما يضرها .

* * *

ب - حديث الإفك ومافيه من المواقف والعبر -

أخرج الإمام البخاري من حديث الإمام الزهري قال : أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعُبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة رضي الله عنها زوجِ النبي ﷺ حين قال لهـا أهلُ الإفك ماقـالوا : فبـرأها الله مما قالوا - وكلٌّ حـدَّثني طائفـةً من الحديث ، وبعـض حديثهم يصـدِّقُ بعضـا ، وإن كان بعضُـهم أوعى له من بعض - الذي حدثني عـروةُ عن عـائشـة رضي الله عنـهـا أن عـائشـة رضي االله عنهـا زوج النـبي ﷺ قـالت « كـان رسـولُ الله ﷺ إذا أراد أن يخـرُج أقـرعَ بينَ أزواجه ، فأيَّتُهن خرج سهـمـهـا خرج بهـا رسولُ الله ﷺ معهُ . قالت عائشة : فأقرعَ بيننا في غزوة غَزاها[1] فخرج سهمي ، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجابُ ، فأنا أُحملُ في هَودَجي وأنْزَل فيه .

فسرنا حتى إذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من غـزوته تلك وقف ودَنونا من المدينة قافلين آذن ليلةً بالرَّحيل ، فقمتُ حينَ آذنوا بالرَّحيل فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش ، فلمـا قَضَيتُ شأني أقبَلتُ إلى رحلى ، فإذا عقدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع ، فالتمستُ عقدي وحَبَسني ابتغاؤه .

وأقبل الرهطُ الذين كـانوا يُرَحِّلون لي فاحتـملوا هودَجي ، فرحلوهُ على بَعيري الذين كنت ركبتُ وهم يحسبون أني فيه ، وكـان النسـاء إذ ذاك خفافًا لـم يثقلهُنَّ اللحم ، إنما يأكلن العُلقة من الطعام، فما استنكر القـوم خـفـة الهـودج حين رَفعـوه ، وكنتُ جارية حـديثة السن ، فـبعـثوا الجمل وسـاروا ، فوجدت عقـدي بعدَ ما استمر الجيشُ ، فـجئتُ منازلهم

(١) هي غزوة بني المصطلق كما في رواية ابن إسحاق .

وليس بها داع ولا مجيب . فأممتُ منزلي الذي كنتُ به ، وظَنَنتُ أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ .

فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبَتني عيني فنمت ، وكان صفوانُ بن المعطل السُّلَمِيُّ ثم الذَّكواني من وراء الجيش [١] ، فأدلج [٢] فأصبح عندَ منزلي ، فرأى سَوادَ إنسان نائم ، فأتاني فعرَفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفَني [٣] ، فخمَّرتُ وَجهي بجلبابي [٤] ، والله ما كلَّمني كلمةً ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلتَهُ فوطئ على يديها فركبتُها ، فانطلق يقودُ بي الراحلة حتى أتينا الجيشَ بعد مانزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة .

فهلك من هلك ، وكان الذي تولى الإفك عبدَ الله بن أُبي ابن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهرًا ، والناسُ يفيضون في قول أصحاب الإفك ، ولا أشعُر بشيء من ذلك ، وهو يريبُني في وَجَعي أني لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخُلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ فيُسلِّم ثم يقول : كيف تيكم ، ثم

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : ووقع في حديث ابن عمر بيان سبب تأخر صفوان ولفظه « سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله على الساقة ، فكان إذا رحل الناس قام يصلي ، ثم اتبعهم فمن سقط له شيء أتاه به » - الفتح ٨/ ٤٦١ - .

(٢) سار في الليل .

(٣) أي بقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وذلك ليوقظها وهذا من حسن أدبه .

(٤) وما أروع قول الشاعر أحمد محرم في حكاية هذا السلوك :

جَفَلَتْ منه فغطَّت وجهها وهي في سِتْرين من عقل ودين

ينصرف ، فذاك الذي يريبني ولا أشعرُ بالشرّ ، حتى خَرجت بعدما نقهتُ ، فخرجت معي أمُّ مسطح قبَلَ المناصع ، وهو مُتبرَّزنا وكنا لانخرُج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن تُتَّخذ الكنُف قريبًا من بُيوتنا ، وأمرُنا أمرُ العرب الأوَل في التبرُّز قبَلَ الغائط ، فكنا نتأذى بالكنُف أن نتَّخذها عند بيوتنا .

فانطلقتُ أنا وأمُّ مسطح - وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف ، وأمُّها بنتُ صخر بن عامر خالةُ أبي بكر الصديق ، وابنها مسطحُ بن أثاثة- فأقبلتُ أنا وأمُ مسطح قبَلَ بيتي وقد فرغنا من شأننا ، فعثَرتْ أمُّ مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : بئس ماقلت ، أتَسُبِّين رجلاً شهدَ بدراً ؟ قالت : أي هَنْتاه [1] ، أوَلم تسمعي ما قال ؟ قالت قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا عَلَى مرضي . فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ - تعني - سلَّم[2] ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبويَّ - قالت : وأنا حينئذ أريدُ أن أستيقن الخبرَ من قبَلهما - قالت : فأذنَ لي رسولُ الله ﷺ ، فجئتُ أبوي ، فقلت لأمي : يا أمَّتاهُ مايتحدَّث الناس؟ قالت : يابُنية هوِّني عليك ، فو الله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئةٌ عند رجل يُحبُّها ولها ضَرائر إلا أكثرن عليها . قالت فقلتُ : سبحان الله ، أو لقد تحدَّث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحتُ لايرقأ لي دمع[3] ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي .

---

(١) أي حرف نداء ، وهنتاه بمعنى هذه ، أي ياهذه .

(٢) في رواية أخرى للبخاري « دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم » .

(٣) أي لاينقطع .

فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبثَ الوَحيُ يستأمرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلمُ لهم في نفسه من الوُدّ فقال : يارسول الله ، أهلكَ ، ومانعلمُ إلا خَيرا ، وأما عليٌّ بن أبي طالب فقال : يارسول الله ، لم يضيِّق اللهُ عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدُقك . قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق ، إن رأيت عليها أمرا أغمصُهُ عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تَنامُ عن عَجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله[1] .

• فقام رسولُ الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال رسولُ الله ﷺ وهو عَلَى المنبر : يامعشر المسلمين ، من يَعذُرُني من رجل قد بلغني أذاهُ في أهل بيتي ؟ فو الله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجُلاً ما علمتُ عليه إلا خيرا . وما كان يدخلُ على أهلي إلا معي . فقام سعدُ بن مُعاذ الأنصاريُّ فقال : يارسول الله ، أنا أعذرُك منه ، إن كان من الأوس ضربتُ عُنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سُعد بن عبادةَ - وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحا[2] ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد :

(١) الداجن هي الشاة كما جاء في بعض الروايات ، وهذا التعبير فيه بلاغة حيث أرادت أنها وهي تغفل عن عجين أهلها أكثر غفلة عما رُميت به فهي من النساء الغافلات المؤمنات .

(٢) أي كامل الصلاح ، وفي رواية الواقدي « وكان صالحا لكن الغضب بلغ منه ومع ذلك لم يُغمص عليه في دينه » . وقد أرادت عائشة أنه لم يتقدم منه قبل ذلك ما يتعلق بالوقوف مع أنفة الحمية .

كذبت لَعمرُ الله ، لاتقتلهُ ولاتقدرُ على قتله . فقام أُسيدُ بن حُضَير - وهو ابن عمِّ سعد بن مُعاذ - فقال لسعد بن عبادة : كذبتَ لعمرُ الله لنقتلنَّه ، فإنك منافقٌ تجادلُ عن المنافقين فتثاور الحيَّان الأوسُ والخزرج حتى هموا أن يَقتتلوا ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر ، فلم يزل رسولُ الله ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا وسكت .

قالت : فمكثتُ يومي ذاك لايَرقأ لي دَمعٌ ولا أكتحل بنوم . قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيتُ ليلَتَين ويوما لا أكتحل بنوم ولايرقأ لي دمع يظنان أنَّ البكاء فالقٌ كبدي .

قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها ، فجلست تبكي معي ، قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلمَ ثم جلس ، قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لَبثَ شهراً لايوحَى إليه في شأني قالت : فتشهَّدَ رسولُ الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعدُ ، ياعائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئةً فسيُبرِّؤك الله ، وإن كنت ألممت بذَنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تاب إلى الله تابَ اللهُ عليه .

قالت : فلما قضى رسولُ الله مقالته قَلصَ دَمعي حتى ما أُحسُّ منه قَطرة ، فقلت لأبي : أجبْ رسولَ الله ﷺ فيما قال . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلتُ لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ قالت : ماأدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ . قالت فقلتُ - وأنا جارية حديثة السنِّ

لا أقرأ كثيراً من القرآن - : (١) إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتم به ، فَلئن قلتُ لكم إني بريئة -والله يعلم أني بريئة - لاتُصدِّقونني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر -واللهُ يعلم أني منه بريئة - لتصدِّقنِّي . والله ما أجدُ لكم مثلا إلاّ قول أبي يوسف ، قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(٢) .

قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي . قالت : وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأنَّ الله مُبرِّئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظنُّ أن الله منزلٌ في شأني وَحيًا يُتلى ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٌ يتلى ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسولُ الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني اللهُ بها .

قالت : فو الله ما رامَ رسول الله ﷺ(٣) ولاخرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزل عليه ، فأخذه ماكان يأخذُه من البُرحاء (٤) ، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثل الجُمان من العَرق وهو في يوم شات من ثقَل القول الذي ينزلُ عليه (٥) .

قالت : فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحَك ، فكانت أولُ كلمة تكلمَ بها : ياعائشة ، أما الله عزَّ وجل فقد برَّأك .

---

(١) قالت ذلك من باب الاعتذار لكونها لم تستحضر اسم يعقوب عليه السلام .

(٢) يوسف / ١٨ .

(٣) رام أي فارق .

(٤) أي شدة الكرب .

(٥) جاء في رواية ابن إسحاق « فأما أنا فو الله مافزعت قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي ، وأما أبواي فما سرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجنَّ أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس » .

فقالت أمي : قومي إليه قالت فقلت : والله لا أقومُ إليه ، ولاأحمدُ إلا الله عزَّ وجل . وأنزل الله ﴿ **إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ** .. ﴾ العشر الآيات كلها - [النور: ١١، ٢٠] - .

فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه وكان يُنفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفقُ على مسطح - شيئًا أبدا بعدَ الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر : بلى والله ، إني أحبُّ أن يغفر الله لي . فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعُها منه أبدا .

قالت عائشة وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال : يازينبُ ، ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يارسول الله ، أحمي سمعي وبصري ، ماعلمتُ إلا خيرا . قالت - وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورَع ، وطفقَت أختُها حمنةُ تحاربُ لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»[2].

---

(١) أي تعاليني من السمو وهو العلو ، أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي صلى الله عليه وسلم ما أطلب .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ، رقم ٤٧٥٠ (٨/ ٤٥٢) والتعليقات في الهامش مقتبسة من كلام الحافظ ابن حجر (الفتح ٨/ ٤٥٧ - ٤٧٨) .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث عائشة وذكر نحوه - صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، رقم ٢٧٧٠ (ص٢١٢٩) .

وأخرجه ابن إسحاق عن عدد من الشيوخ من حديث عائشة رضي الله عنها وذكر نحوه مع اختلاف في بعض السياق - سيرة ابن هشام ٣/ ٣٨١ - ٣٩١ - .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

في هذا الخبر مواقف جليلة لرسول الله ﷺ ، ولأبي بكر الصديق ، وأم المؤمنين عائشة ، وصفوان بن المعطل السلمي ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم .

فالرسول ﷺ قد ابتُلي بهذه الفرية بلاء عظيما ، فهو في أعلى مسئولية من الدعوة والقيادة ، وأي شيء يدنِّس سمعته فإنه يؤثر على سير دعوته ومكانته القيادية ، فلهذا عاش تلك المدة قبل أن ينزل عليه الوحي ببراءة عائشة في معاناة شديدة .

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يطَلِّق عائشة فور سماع هذه الفرية ويخلص نفسه من ذلك البلاء ولكن لم يكن من خُلُقه ﷺ أن يحافظ على سمعته الدعوية والقيادية بظلم الآخرين ، فما ذنب عائشة الطاهرة وبيتها الطاهر حينما يكون حل المشكلة بالقضاء عليها وإنزال مزيد من البلاء على أبويها ؟ ! .

لذلك كان البقاء في المعاناة والحرج مع شدته هو السلوك الأمثل عند رسول الله ﷺ حتى يأتي الفرج من الله تعالى ، وفي هذا مثل واضح على اتصاف النبي ﷺ بأعلى ما يمكن أن يتصف به بشر من الرحمة والشفقة .

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يحكم ببراءتها من أعلى منبر لما يعلمه من صدقها وعفافها وتقواها ، وسيصدقه في ذلك المؤمنون ، ولكن كيف وقد قيل ما قيل وانتشرت الإشاعة الأثيمة في كل أوساط المدينة ، وربما أنها انتقلت خارج المدينة ؟ ! .

وهل يكفي إعلان النبي ﷺ بالبراءة لقطع دابر ألسنة الحاقدين من اليهود والمنافقين ؟ وهل ستظل سمعة النبي ﷺ الدعوية والقيادية نقية طاهرة بمجرد هذا الإعلان؟ .

لقد كان ﷺ واثقا من طهارة الصديقة ونزاهتها مما نسب لها ولذلك قام على المنبر وقال : « من يَعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا » ولكن لم يكن ذلك إعلانا للبراءة الكاملة التي تُسكت الحاقدين وتقطع جميع موارد الفتنة ، وإنما كان ذلك محاولة منه ﷺ لكفّ أذى كبير المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول عن نفسه وأسرته حتى ينزل في الأمر بيان قاطع شاف من الله تعالى ، ولم يسبق أن حدث مثل تلك الفرية ونزل فيها تشريع من الله تعالى ، ولو كان ذلك لطبقه رسول الله ﷺ حالا .

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد ابتلي أيضا ببلاء عظيم، فقد كانت التهمة موجهة لبنته الصديقة الطاهرة ، وبالتالي فإن أبا بكر الذي يعتبر أول رجل في الإسلام بعد رسول الله ﷺ قد وُجهت له طعنة نجلاء وضربة موجعة ، والمنافقون وسائر أعداء الإسلام أحرص شيء على تشويه سمعة قادة المسلمين البارزين ، وقد عاش رضي الله عنه تلك الفترة في همّ كبير ومعاناة شديدة لما يرى من نيل المنافقين الشديد من رسول الله ﷺ ولما يرى من واقع ابنته المحزن ، والبلاء الهابط على أسرته، ولكنه كان جميل الصبر ، راسخ اليقين عظيم الثقة بالله جل جلاله . .

ومما تجمل به الصديق من عفة اللسان أنه لم يصدر منه أي سب

ولاشتم لأولئك الذين خاضوا في عرض ابنته ، ولم يُنقل عنه - كما قال الحافظ ابن حجر - أنه قال شيئًا إلا قوله « والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام ؟ ! »[1] .

أما الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما فقد نزل عليها خبر الإفك نزول الصاعقة وظلت تبكي الليل والنهار ، وكان من فضل الله تعالى عليها أنها لم تعلم بهذا الخبر إلا في وقت متأخر ، ومع صغر سنها وشناعة الإفك وسعة انتشاره فإنها لم يظهر منها أي سلوك يخدش دينها أو يشين عقلها ، وصبرت صبرا جميلا مشوبا بالحياء المتين والأدب الرزين ، حتى فرج الله تعالى كربتها وأنزل براءتها .

ولقد عبرت في هذا الخبر عن معاناتها وآلامها حينما علمت بالإفك بأسلوب أدبي في غاية الرفعة والسمو .

إن حديث الإفك هذا يعتبر نموذجًا للأدب العالي ، في قوة البيان وجزالة الألفاظ ووضوح المعنى ولقد كانت عائشة رضي الله عنها مشهورة بالفصاحة وقوة الكلمة والتأثير القوي على السامعين، ولقد أثنى عليها بالفصاحة والبيان بلغاء الصحابة والتابعين .

ومن نماذج بلاغتها في هذا الحديث قولها « فانطلق - يعني صفوان- يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك » فالفاء في قولها « فهلك » هي الفاء الفصيحة ، فقد أفصحت عن جمل مقدرة تحكي حال الناس الذين خاضوا في تلك الفرية الشنيعة ، فاكتفت ببيان عاقبة أمرهم عن وصف حالهم وجريمتهم .

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٨٠ .

ومن ذلك قولها « فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة » فهذا تعبير بليغ عن التأثر الشديد جداً الذي تجاوز حدود التأثر المعتاد الذي تستهل منه العيون دمعا ، فبلغ إلى الحد الذي قلص معه الدمع وجف تماما .

ومن المواقف التي ينبغي الإشادة بها في هذا الخبر ما كان يقوم به صفوان بن المعطِّل السلمي رضي الله عنه من التأخر وراء الجيش والقيام بالتقاط ما قد يسقط من المسلمين من متاع ثم إيصاله إلى أصحابه ، وهذه مهمة فدائية ، لأن انفراد رجل واحد عن الجيش قد يعرِّضه للمداهمة من الأعداء .

ولقد قدر الله تعالى أن يكون ما يستدركه هذه المرة أغلى من كل ما يملكه المسلمون ومن جميع كنوز الأرض ، أوليس الله تعالى قد أنقذ به عالمة الإسلام الأولى التي حفظت لهذه الأمة نصف العلم الديني ، فكم هو الخير الذي قدمه هذا الفدائي النبيل لأمة الإسلام ! .

كذلك كان لأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها موقف جليل في الورع وخشية الله تعالى ، وذلك أنها لما استشارها رسول الله ﷺ في أمر عائشة قالت : « يارسول الله أحمي سمعي وبصري ماعلمت إلا خيراً » قالت عائشة رضي الله عنها : « وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع » ، يعني فكان المظنون من ضرَّة تنافس ضرتها على الحظوة لدى الزوج أن تسعى جهدها في كسب زوجها ، وقد يهبط مستواها الديني إلى افتراء أمور تُنفِّر زوجها

من ضرتها، لكن زينب لم تنتهز هذه الفرصة لتشويه سمعة عائشة رضي الله عنهما .

وهكذا اصطفى الله تعالى لرسوله ﷺ نساء طاهرات تقيات ، فلم يُذكر عن واحدة منهن أنها أسهمت في ذلك الإفك .

كذلك كان لبعض الصحابة مواقف عالية في الدفاع عن أم المؤمنين عائشة وتنزيهها مما نسب إليها ، فمن ذلك ماذكره الحافظ ابن حجر من رواية عطاء الخراساني عن الزهري في إحدى روايات هذا الخبر « وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب : أما سمعت مايتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك ، فقال : مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » ، قال : وروى الطبري من طريق ابن إسحاق قال : حدثني أبي عن بعض رجال بني النجار « أن أبا أيوب قالت له أم أيوب : أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله خير منك »(١) .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] يعني ألا قلتم كما قال سعد بن معاذ الأنصاري ، وذلك أن سعدًا لما سمع قول من قال في أمر عائشة قال (سبحانك هذا بهتان عظيم) ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف (٢) .

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٧٠ .

(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٧٨ .

فهذه نماذج من مواقف الصحابة رضي الله عنهم تدل على ورعهم وعفة ألسنتهم مما ينتج عن قوة إيمانهم وخشيتهم من الله تعالى .

* * *

مواقف وعبر
فــى غـزوة الخـنـدق
(الأحـزاب)

١- تحزب الأحزاب ضد المسلمين -

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطّلبي، قال : ثم كانت غزوة الخندق في شوّال سنة خمس . فحدثني يزيد بن رُومان مولى آل الزُّبير عن عُروة بن الزبير، ومن لا أتَّهم عن عبد الله بن كعب بن مالك، ومحمد بن كعب القرظيّ، والزُّهْرى، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، وغيرهم من علمائنا، كلهم قد اجتمع حديثه في الحديث عن الخندق، وبعضهم يحدّث ما لايحدّث به بعض، قالوا : إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود - منهم : سلام بن أبي الحُقَيْق النضري، وحُيَيّ بن أخْطب النضري، وكنانة بن أبي الحُقيق النضري، وهَوْذة بن قيس الوائلي، وأبو عَمّار الوائلي - في نفر من بني النضير، ونَفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكةَ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحقٍّ منه . فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ[1] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١)

(١) الجبت هو السحر، والطاغوت هو الشيطان كما رُوي عن عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهم - تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٤ - .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ . . إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ : أي النبوة ، ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥) ﴾ [النساء : ٥١ – ٥٥] .

قال : فلما قالوا ذلك لقريش ، سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له . ثم خرج أولئك النفر من يهود ، حتى جاءوا غطفان ، من قيس عيلان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، واجتمعوا معهم فيه .

قال ابن إسحاق : فخرجت قريش ، وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان ، وقائدها عُيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر ، في بني فَزارة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرّى ، في بني مُرَّة ، ومسعر بن رُخَيلة بن نُويرة بن طَرِيف بن سُحْمة بن عبد الله بن هلال بن خَلاوة بن أشْجع بن رَيْث بن غطفان ، فيمن تابعه من قومه من أشجع [١] .

وذكر ابن إسحاق أن عدد جيش المشركين من الأحزاب عشرة آلاف وأن عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف [٢] .

وأضاف موسى بن عقبة في روايته عند البيهقي مشاركة بني سليم وبني أسد [٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٣ – ٢٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٢ .

(٣) دلائل النبوة ٣/ ٣٩٨ .

وكذلك ذكر الواقدي أن عدد جيش قريش ومن تبعها أربعة آلاف، وأن بني سليم شاركوا مع الأحزاب بسبعمائه بقيادة سفيان بن عبد شمس والد أبي الأعور السلمي الذي كان مع معاوية في حرب صفين ، وأن بني أسد شاركوا بقيادة زعيمهم طليحة بن خويلد ، وأن بني فزارة من غطفان شاركوا بألف مقاتل بقيادة عيينة بن حصن ، وأن بني مرة من غطفان شاركوا بأربعمائة بقيادة الحارث بن عوف ، وأن بني أشجع من غطفان شاركوا بأربعمائة بقيادة مسعود بن رخيلة ، ولم يذكر عدد بني أسد وبقية غطفان [1] .

في هذا الخبر تصوير لجهود اليهود الأثيمة في تأليب أعداء المسلمين عليهم وجمعهم لحربهم، وهذا الخُلق الذميم قد اشتهروا به قديمًا وحديثًا .

ونجدهم في هذا الخبر مع علمهم اليقيني بصدق نبوة رسول الله ﷺ يخونون الأمانة ويُلبِّسون الحقائق فيحكمون بأن دين قريش الوثني أفضل من دين المسلمين الإلهي ، فهم عبيد المصلحة فإذا كانت مصلحتهم الدنيوية تتحقق بالكذب والخيانة والغدر فإن هذه الأخلاق السيئة وأمثالها هي دينهم الذي يقدسونه ظاهرا وإن كانوا يعرفون الحق باطنا كمعرفتهم أبناءهم .

وقد لاقت سعاياتهم الخبيثة آذانا صاغية من أعداء المسلمين في مكة، حيث الحقد المتراكم على المسلمين ، والرغبة الأكيدة في القضاء

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٣ .

على الدين الإسلامي الذي تجرعوا بسببه الذل والإهانة لما كفروا به وقاوموا أصحابه .

كما لقيت سعاياتهم قبولا لدى القبائل الانتهازية التي تطمع في خيرات المدينة وتحلم بشرف الاستيلاء عليها .

* * *

٢- حفر الخندق وما جرى فيه من مواقف وعبر

١ - قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ، وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبا للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا .

وذكر ابن هشام أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة (١) .

٢- وروى الواقدي عن شيوخه في ذلك أن سلمان قال : يارسول الله إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فهل لك يارسول الله أن نخندق ؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين .

ثم قال الواقدي : فحدثني أبو بكر بن أبي سبرة قال : حدثني أبو بكر بن عبد الله بن جهم أنَّ رسول الله ﷺ ركب فرسًا له ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فارتاد موضعًا ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعًا (٢) خلف ظهره ، ويخندق من المذاد (٣) إلى ذباب إلى راتج (٤) . فعمل يومئذ في الخندق ، وندب الناس ، فخبرهم بدُنو عدوّهم ، وعسكرهم إلى سفح سلع ، وجعل المسلمون يعملون

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٨ .

(٢) سلع : الجبل المعروف الذي بسوق المدينة (وفاء الوفا ، ج٢ ، ص٣٢٤) .

(٣) المذاد : اسم أطم لبني حرام من بني سلمة غربي مسجد الفتح(وفاء الوفا ،ج٢ ، ص٣٧٠).

(٤) راتج : الجبل الذي إلى جنب جبل بني عبيد غربي بطحان (وفاء الوفا ، ج٢ ، ص٣١٠) .

مستعجلين يُبادرون قدوم العدو عليهم ، وأخذ رسول الله ﷺ يعمل معهم في الخندق لينشِّط المسلمين [1] .

٣- وأخرج الإمام البخاري في بيان معاناة المسلمين في حفر الخندق من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « خرج رسولُ الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصارُ يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم ، فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال : اللهم إن العيش عيشُ الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة . فقالوا مُجيبين له :

نحـــنُ الذين بايعوا محمدا   على الجهاد مابقينا أبدا [2]

٤- كما أخرج في ذلك من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « لما كان يومُ الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الترابُ جلدةَ بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعتهُ يرتجزُ بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

اللهم لولا أنتَ ما اهتدينا   ولاتصـــدقنا ولا صــلينا

فـــأنـــزلَنْ سكينةً علـينا   وثبـت الأقـدام إن لاقينا

إن الألى هـــم قد بَغوا علينا   وإن أرادوا فـتـنـةً أبـينـا

قال : ثم يمدُّ صوتهُ بآخرها » [3] .

٥ - ومما يبين جهد النبي ﷺ الذي بذله في حفر الخندق ما أخرجه

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٥ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٩٩ (٧/ ٣٩٢) .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤١٠٦ (٧/ ٣٩٩) .

الواقدي بإسناده إلى أبي واقد الليثي ، قال : رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق ، فأجاز من أجاز وردّ من ردّ ، وكان الغلمان يعملون معه ، الذين لم يبلغوا ولم يُجزهم ، ولكنه لما لحم الأمر أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذراري . وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول ، ومرةً يغرف بالمسحاة التراب ، ومرةً يحمل التراب في المكتل . ولقد رأيته يومًا بُلغ منه ، فجلس رسول الله ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم . فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يُنحِّيان الناس أن يمرّوا به فيُنبِّهوه ، وأنا قربت منه ، ففزع ووثب ، فقال : ألا أفزعتموني ! فأخذ الكَرْزَن [1] يضرب به [2] .

٦ - وقال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا : سلمان منا ، وقالت الأنصار : سلمان منا ، فقال رسول الله ﷺ : سلمان منا أهل البيت [3] .

وأخرج ذلك الواقدي عن شيوخه وذكر أن سبب تنافسهم عليه أنه كان قويا عارفا بحفر الخنادق [4] .

---

(١) الكرزن هو الفأس .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٤٥٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٩ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٦ ويؤيد ماروي بن ثناء النبي ﷺ على سلمان ما أخرجه ابن عبد البر بإسناده عن أبي البختري عن علي رضي الله عنه أنه قال في سلمان « عَلم العلم الأول والآخر بحر لاينزف وهو منا آل البيت » - الاستيعاب ٢/ ٥٩ ، وذكره الذهبي من هذا الطريق - سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤١ - وقال محققه : رجاله ثقات .

وذكر الواقدي في إحدى رواياته أن المسلمين قضوا في حفر الخندق ستة أيام [1] .

وكان مسوغ دعوى الأنصار أن سلمان من أهل المدينة لإقامته فيها، وكان مسوغ المهاجرين أنه هاجر إليها من خارجها كما هاجروا إليها .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولاً : مشاركة رسول الله ﷺ أصحابه في حفر الخندق فلقد كان قائدًا لأصحابه حتى في هذا العمل الشاق ، ولقد بذل جهدا كبيرا في ذلك حتى كسى التراب جسده الشريف .

ويداهمه النوم ﷺ من شدة الإعياء والسهر ، فينام مستندا على حجر ، ويُشفق عليه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصرفان عنه الناس ليستغرق في نومه ، ولكنه ينتبه من دبيب أقدام حوله فيلوم أصحابه على تركه نائما خشية أن يتأخر العمل في حفر الخندق ، ولقد كان ﷺ كما سبق في غزوة أحد إذا جدَّ الجد لا يشبهه أحد .

ونجده ﷺ يحرِّض أصحابه على الجد في العمل فيذكِّرهم بنعيم الآخرة ليجتهدوا في العمل الصالح الموصل إلى ذلك النعيم فيقول لهم وهم يحفرون الخندق : اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فيجيبونه بلسان المؤمن الواثق :

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

وكان ﷺ وهو ينقل التراب يرتجز بشعر ابن رواحة المذكور في الخبر، وذلك ليشد من عزائم المسلمين .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٥٤ .

لقد كان بإمكانه ﷺ أن يبقى في حصن منيع وأن يتخذ لنفسه حرسا، وما أكثر الذين يفدونه بأرواحهم من أصحابه ، ولو فعل ذلك لم يعترض عليه أحد ، ولرأى الصحابة أن ذلك من حقه وأن من واجبهم أن يقوموا بحمايته ، وأن يتولوا حماية المدينة بحفر الخندق، ولكنه ﷺ قدوة عليا لأمته فهو دائما يسابق أصحابه إلى البذل والتضحية ولا يوفر نفسه من الأعمال الشاقة .

إن مشاركة النبي ﷺ بنفسه في حفر الخندق مع أنه زعيم المسلمين وإمامهم وبين قوم يفدونه بأرواحهم لمن أقوى الأدلة على صفاته التربوية العالية وخلود عظمته عبر الأجيال ، فلم يجعل من نفسه زعيما دنيويا يُصدر الأوامر والنواهي وهو في معزل من عامة الناس بل شاركهم في السراء والضراء ، يشبع إذا شبعوا ويجوع إذا جاعوا ، ويعمل في المصالح العامة كما يعملون ، وما هذا إلا مثل من أمثلة كثيرة لتواضعه وسلوكه التربوي العالي ﷺ .

ثانيًا : طاعة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وتفانيهم في تنفيذ أوامره ، فقد بذلوا جهدا مكثَّفا في حفر الخندق ، حتى استطاعوا - على طوله - أن ينجزوه في أيام معدودة ، وأن ينجحوا في سبق الكفار وتحصين المدينة قبل مجيئهم .

ولقد كان لهذه الخطة الحربية الحكيمة أثر فعال في نجاح المسلمين في المعركة حيث أبطلوا بذلك مفعول سلاح الفرسان الذي يتفوق به الأعداء على المسلمين ، واقتصر القتال على سلاح الرماية الذي لم يستفد منه الكفار كثيرا لضعف استعدادهم في هذا المجال ، ولبعد معسكر المسلمين

نسبيا عن الخندق ، ولقوة الحراسة من المسلمين وشدة انتباههم كما سيأتي .

ثالثًا : في قول رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت » ما يشعر بأن سلمان من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين ، ولكنه عبَّر بطريقة بارعة رفع فيها من شأن سلمان ، وأشعر الفريقين بأن هناك فريقا ثالثا أعلى شأنا من الفريقين ، وإنْ كان ينتمي إلى أحدهما ، فلا خصومة في سلمان لأن شأنه أكبر من ذلك فإنه قد فاز باللحاق بالفريق الأعلى ، وإنا لنجد في هذا التعبير العالي لمسات سامية أقنعت الفريقين ، وأعلت من شأن رجل كان في قمة الشرف والرفعة في بلده الأول ، ثم تقلب به الزمن حتى صار موئل المهانة والذل في عبودية رجل يهودي إلى أن تحرر منه ، فكان في كلمة النبي ﷺ رد اعتبار له ومكافأة سخية على ما تخلى عنه من حياة ا لشرف والرفعة إلى حياة المهانة والذل من أجل أن يظفر بالإيمان بالنبي ﷺ وصحبته ، فما أعظمك يارسول الله مربيا وهاديا !! .

٧ - قال ابن إسحاق : وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يُوَرُّون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له .

قال : فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ**

يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾ [النور: ٦٢] فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] [1].

وإننا حينما نقارن بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين في هذا الخبر نعرف كيف أن الإسلام ينتقي أزكى العناصر البشرية فيصبُّها في قالب جماعة المسلمين حيث ينتُج عنها بعد ذلك العجائب مما يذهل أصحاب الفكر المتأمل والعقل المتبصر، سواء في مجال السلم حيث تقوم بعمران الأرض على قدم وساق و هي تُتَوِّج أعمالها بنشر العدل بين الناس والرحمة بالضعفاء، أو في مجال الحرب حيث تبذل الغالي والنفيس في سبيل خدمة مبادئها السامية التي تخضع لها عقول أعدائها قبل أن تخضع لها رقابهم، وهذه الجماعة مع ذلك لاتقاوم أعداءها الذين صرحوا بعدائها فقط وإنما تقاوم أيضا المنافقين الذين يظهرون الولاء لها وهم يكيدون لها من داخلها بمختلف أنواع الكيد.

فهؤلاء المنافقون الذين في عهد رسول الله ﷺ يتسللون من الخدمة مع جماعة المؤمنين في أمر مهم وخطير يتوقف عليه أمْن هذه الجماعة التي أظهر هؤلاء ا المنافقون انضمامهم لها والإيمان بمبادئها، فنهى الله تعالى

المؤمنين عن أن يكونوا كهؤلاء المنافقين الذين يستهينون بأمر النبي ﷺ فيجعلون نداء الرسول ﷺ إياهم وتكليفهم بالعمل كنداء بعضهم بعضا ، بَيْدَ أن أمر النبي ﷺ أمر إلهي لاخيار للمسلم فيه ولايجوز التردد في تنفيذه .

٨ - قال الإمام البخاري : حدثنا خلادُ بن يحيى حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال « أتيتُ جابرًا رضي الله عنه فقال : إنا يوم الخندق نحفُر فعرضت كُدْية [١] شديدة ، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كديةٌ عرضت في الخندق فقال : أنا نازل . ثم قام وبطنهُ معصوب بحجَر ، ولبثنا ثلاثة أيام لانذوقُ ذواقًا ، فأخذ النبي ﷺ المعْوَل فضرب في الكدية ، فعاد كثيبًا أهْيَلَ أو أهيم [٢] .

فقلت : يارسول الله ائذن لي إلى البيت . فقلتُ لامرأتي : رأيتُ بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ فقالت : عندي شعير وعناق . فذبحتُ العناق ، وطحَنَت الشعير ، حتى جعلنا اللحم بالبُرمة . ثم جئتُ النبي ﷺ والعجينُ قد انكسر ، والبرمة بين الأثافيِّ قد كادت أن تنضج ، فقلتُ : طُعيِّم لي ، فقم أنت يارسول الله ورجلٌ أو رجلان . قال : كم هو ؟ فذكرت له ، فقال : كثيرٌ طيب . قال : قل لها لاتنزع البرمة ولا الخُبز من التنور حتى آتي .

فقال : قوموا . فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال : وَيْحك ، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . قالت :

---

(١) هي الصخرة الصلبة .

(٢) أي رملا سائلا ، كقوله تعالى ﴿ وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ .

هل سألك ؟ قلتُ : نعم [1] . فقال : ادخلوا ولاتضاغطوا . فجعل يكسرُ الخبز ويجعلُ عليه اللحم، ويُخمِّرُ البرمة والتُّنورَ إذا أخذ منه ، ويُقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسرُ الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقي بقيةٌ ، قال : كلي هذا وأهدي ، فإنَّ الناس أصابتهم مجاعة» [2] .

٩ - قال الحافظ نور الدين الهيثمي : عن البراء بن عازب قال : أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله وأحسبه وضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال: بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : الله أكبر أعطيتُ مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا ، ثم قال : بسم الله وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال : الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله وضرب ضربة أخرى فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا . رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : في هذا السياق اختصار وبيانه في رواية يونس « قال : فلقيت من الحياء ما لايعلمه إلا الله عز وجل وقلت : جاء الخَلْق على صاع من شعير وعنا ق، فدخلت على امرأتي أقول : افتضحت ، جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين ، فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ فقلت : نعم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، ونحن قد أخبرناه بما عندنا ، فكشفَتْ عني غمًا شديدًا - فتح الباري ٧/ ٣٩٨ - .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٠١ (٧/ ٣٩٥) .
وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الأشربة ، رقم ٢٠٣٩ (ص ١٦١٠).
وأخرجه ابن إسحاق - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٨ - ٢٦٠ - .

ثم ذكر رواية أخرى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وقال : رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما حُيي بن عبد الله وثَّقه ابن معين وضعفه جماعة ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

ثم ذكر رواية ثالثة من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونُعيم العنبري وهما ثقتان [١] .

وذكره الحافظ ابن حجر من رواية الإمام أحمد والنسائي وحسَّن إسناده [٢] .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه[٣] .

١٠ - قال ابن إسحاق : وحدثني سعيد بن مينا أنه حُدِّث أن ابنةً لبشير بن سعد، أخت النعمان بن بشير ، قالت : دعتني أمِّي عَمرة بنتُ رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ، ثم قالت : أي بُنيَّه ، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله ابن رواحة بغدائهما ، قالت : فأخذتها ، فانطلقت بها فمررتُ برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي ، فقال : تعالي يابُنَيَّة، ماهذا معك ؟ قالت : فقلت : يارسول الله ، هذا تمر ، بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد ، وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه ، قال : هاتيه ، قالت : فصبَبته في كفَّي رسول الله ﷺ ، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبُسط له ، ثم دَحَا بالتمر عليه ، فتبدَّد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده ، اصرخ في أهل الخندق : أن هَلُمَّ إلى الغداء . فاجتمع أهل الخندق

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٩٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦١ .

عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعلَ يزيد، حتى صَدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب [1].

في هذه الأخبار عبر عظيمة فيما جرى لرسول الله ﷺ من المعجزات.

فالمعجزة الأولى في تكثير الطعام بن يديه ﷺ وقد جاء ذلك في حديث جابر رضي الله عنه عند البخاري حيث دعا رسول الله ﷺ ورجلا أو رجلين على طعامه فأكل منه أهل الخندق وهم عدة مئات، وكذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني، وأبلغ من ذلك ما جاء في حديث ابنة بشير بن سعد عند ابن إسحاق حيث شبع أهل الخندق من تمرات لم يملأن كفَّي رسول الله ﷺ، وذلك مما أنزل الله تعالى في الطعام من البركة على يد رسوله ﷺ.

أما المعجزة الثانية ففي تليين الحجر لرسول الله ﷺ وانكساره بين يديه، ثم في إخباره ﷺ عما سيكون في المستقبل من فتح الشام وبلاد فارس واليمن.

وإن في ظهور هذه المعجزات على يدي رسول الله ﷺ والمسلمون في تلك الحال الحرجة التي ابتُلي فيها المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً حكمًا عظيمة، حيث قوّى الله تعالى بها قلوب المؤمنين ورسَّخ إيمانهم حتى أيقنوا بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، ليس في تلك المعركة

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٩.

وأخرجه الواقدي بإسناده إلى القاسم بن عبد الرحمن بن رافع النَّجَّاري وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٦.

وحدها وإنما في المعارك القادمة أيضا حتى ينتشر دين الله تعالى وتكون كلمته هي العليا .

كما أن في هذه المعجزات تبكيتا للمنافقين واليهود الذين أرجفوا بالمؤمنين وخذَّلوهم ، فإن أيَّ عاقل يرى هذه المعجزات يُسَلِّم بنبوة رسول الله ﷺ وأن الله تعالى معه بنصره و تأييده .

وفي خبر جابر عند البخاري بيان لشيء من أخلاق النبي ﷺ العالية، حيث كان يتولى تقديم الطعام لأصحابه رضي الله عنهم حتى شبعوا ، وفي هذا دلالة على تواضعه العظيم ، والتواضع يعتبر من أعظم صفات الكمال في الإنسان .

* * *

٣ - غدر يهود بني قريظة ومواقف للصحابة -

قال ابن إسحاق : وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القُرَظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده ، فلما سمع كعب بحُييّ بن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له ، فناداه حُيَيّ : ويحك ياكعب ! افتح لي ، قال : ويحك ياحييّ، إنك امرؤ مشئوم ، وإني قد عاهدت محمداً ، فلستُ بناقض ما بيني وبينه ، ولم أرَ منه إلا وفاء وصدقا ، قال : ويحك افتح لي أكلِّمك ، قال : ما أنا بفاعل .

قال : والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك [1] أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل ، ففتح له ، فقال : ويحك ياكعب جئتك بعزّ الدهر وببحْر طام ، جئتك بقُريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقَمَى إلى جانب أُحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

قال : فقال له كعب : جئتني والله بذُلّ الدهر ، وبجهام قد هَرَاق ماءَه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شيء ، ويحك ياحُييّ ! فدَعني وما أنا عليه ، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقا ووفاءً .

فلم يزل حُييّ بكعب يفتله في الذّروة والغارب [2] حتى سمح له ،

(١) الجشيشة هي السويق .

(٢) الذروة والغارب أعلى ظهر البعير وكان البعير إذا شرد من صاحبه وصعب عليه مسح على ظهره بيده حتى يسكن ويهدأ والمراد أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا نفر .

على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً ، أن أدخل معك في حصنك حتى يُصيبني ما أصابك . فنقض كعبُ بن أسد عَهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ (١) .

وهكذا وافق يهود بني قريظة أسلافهم من يهود بني النضير على الغدر برسول الله ﷺ والمسلمين ، مع أنهم لم يروا منهم إلا الوفاء والصدق كما جاء في اعتراف زعيمهم كعب بن أسد ، لكن النفوس التي ألفَت الشر ونشأت على الغلّ و الحقد والحسد لايستريح أصحابها وهم يرون غيرهم في عز وسعادة ، لأنهم يريدون أن يختصوا بذلك دون غيرهم وأن يكون الآخرون تحت سلطان خداعهم وتضليلهم كما كان الأنصار كذلك في جاهليتهم مع يهود المدينة .

ولما وصل الخبر إلى النبي ﷺ بما أقدم عليه يهود بني قريظة من نقض العهد بعث إليهم الزبير بن العوام رضي الله عنه ليأتي بخبرهم ، وفي ذلك أخرج الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ يومَ الأحزاب : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير أنا . ثم قال : إنَّ لكل نبي حواريّاً وإن حواريَّ الزبير » (٢) .

وجاء في رواية الواقدي أن الزبير ذهب إلى بني قريظة ثم رجع

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١١٣ (٧/ ٤٠٦) .

فقال : يارسول الله رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم وقد جمعوا ما شيتهم [1] .

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يكلفه بمخاطبتهم وإنما كلفه بمعرفة واقعهم هل هو حربي أم سلمي .

فلما تبين للنبي ﷺ ما يدل على صحة ماذُكر عنهم من نقض العهد بعث إليهم وفدًا من الأنصار لمخاطبتهم لمعرفة حقيقة أمرهم .

وقد أخرج الخبر في ذلك محمد بن إسحاق حيث يقول : فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين ، بعث رسولُ الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعدَ بن عبادة بن دُليم ، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وخوّات بن جبير ، أخو بني عمرو بن عوف ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحقّ مابلغنا . عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنًا أعرفه ، ولاتفُتُّوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

قال : فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : مَنْ رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد : فشاتمهم سعدُ بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حدَّة ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربَى من المشاتمة . ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ ومن معهما ، إلى رسول الله ﷺ

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٥٧ .

فسلموا عليه ، ثم قالوا : عَضَلٌ والقارة ، أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع ، خبيب وأصحابه ، فقال رسولُ الله ﷺ : الله أكبر . أبشروا يامعشر المسلمين [1] .

وهذا موقف يذكر لسعد بن معاذ رضي الله عنه حينما وقف من يهود بني قريظة هذا الموقف الشديد مع أنهم حلفاء قومه في الجاهليه ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه حيث جرَّد قلبه من عصبية الجاهلية .

ومما جاء في غدر بني قريظة ما رواه الواقدي من خبر الحارث بن الفُضيل قال : همّت بنو قُريظة أن يُغيروا على بيضة المدينة ليلاً ، فأرسلوا حُيي بن أخطب إلى قُريش أن يأتيهم منهم ألفُ رجل ، ومن غطفان ألف ، فيُغيروا بهم فجاء رسولَ الله ﷺ الخبرُ بذلك فعظم البلاء ، فكان رسول الله ﷺ يبعث سَلَمَة بن أسْلَم بن حُرَيش الأشهلي في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير ، ومعهم خيل المسلمين ، فإذا أصبحوا أمنوا .

فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قُريش وغطفان ، ولقد كنت أُوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة ، فإذا رأيتهم هادئين حمدت الله عز وجل ، فكان مما ردّ الله به قُريظة عمّا أرادوا أنَّ المدينة كانت تُحرس .

ثم ذكر الواقدي خبر خَوّات بن جبير قال : دعاني رسول الله ﷺ ونحن مُحاصرو الخندق ، فقال : انطلق إلى بني قريظة فانظر هل ترى لهم غرَّةً أو خَلَلاً من موضع فتُخبرني . قال : فخرجتُ من عنده عند غروب الشمس ، فتدلَّيت من سَلْع وغربت لي الشمس فصليت المغرب ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٤ .

ثم خرجت حتى أخذتُ في راتج ، ثم على عبد الأشهل ، ثم في زهرة ، ثم على بُعـاث . فلمـا دنوتُ من القـوم قلت : أكـمُن لهـم . فكمَنْت ورمقت الحصـون سـاعـة ، ثم ذهب بي النوم فلم أشعـر إلاّ برجل قـد احتملني وأنا نائم ، فوضعني على عُنُقه ثم انطلق يمشي .

قال : ففزعت ورجلٌ يمشي بي على عاتقه ، فعرفت أنه طَليعة من قُريظة واستحييت تلك الساعة من رسول الله ﷺ حياءً شديدًا ، حيث ضيّعت ثغرًا أمرني به ، ثم ذكرت غلبة النوم . قال : والرجل يُرقل بي إلى حصونهم ، فتكلم باليهودية فعرفتهُ ، قال : أبشر بجَزْرَة سمينة ! .

قال : وذكرت وجعلت أضرب بيدي - وعهدي بهم لايخرج منهم أحـدٌ أبدًا إلا بمغْـوَل في وسطه [1] . قـال : فـأضع يدي على المغـول فأنتزعه ، وشغل بكلام رجل من فوق الحصن ، فانتزعته فوجأت به كبده فاسترخى وصاح : السَّبُع ! فأوقدت اليهودُ النار على آطامها بشُعَل السَّعَف . ووقع ميتًا وانكشف ، فكنتُ لا أُدْرَك [2] .

وأقـبلُ من طريقي التي جئتُ منهـا . وجـاء جـبريل إلى رسـول الله ﷺ ، فـقـال رسـول الله ﷺ : ظفـرتَ ياخَـوّات ! ثم خـرج فـأخـبر أصحابه فقال : كان من أمر خوات كذا وكذا . وآتي رسول الله ﷺ وهو جـالسٌ في أصحـابه وهم يتـحدثـون ، فلما رآني قـال : أفلح وجـهك ! قلت : ووجهُك يارسول الله ! قال : أخبرني خبرك . فأخبرته ، فقال النبي ﷺ : هكذا أخبرني جبريل . وقال القوم : هكذا حدثنا رسول الله ﷺ . قال خوات : فكان ليلنا بالخندق نهارًا [3] .

---

(١) المغول بكسر الميم وسكون الغين سيف دقيق كهيئة السكين .

(٢) يعني أنه عدّاء لايدركه لاحقه .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦١ .

هذا الخبر يعتبر مثلا من الأمثلة العالية في رباطة الجأش والمقدرة على التفكير السليم مع رهبة مواجهة الموت ، بل مواجهة ماهو أفظع من ذلك بالنسبة للمسلمين وهو ذل الأسر وما يتبع ذلك بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم من مساومة النبي ﷺ في الأسرى ، وقد كان اليهود حريصين على أخذ المسلمين أسرى ليساوموا فيهم فيما لو حاصرهم المسلمون ، ولكنهم لم يتمكنوا من شيء من ذلك .

ولقد كان ذلك اليهودي في غاية الفرح حينما رأى صحابيًا نائمًا فاحتمله أسيرًا بعدما جرده من سلاحه ولقد كان أخذ المسلمين أسرى وهم محاربون من الأمور البعيدة المنال في عهد الصحابة ، ولو أن ذلك اليهودي نبَّه خوات بن جبير لوجده أسدًا مرعبًا .

ولقد كان ذلك ا لسلاح الخفي الذي يحمله اليهود أوساطهم سببا في نجاة خوات بين جبير ووقوع ذلك اليهودي صريعا .

وهكذا تحوَّل سلاح النجاة هلاكا ، وتحول سلاح الهلاك نجاة بقدرة الله تعالى الذي ثبَّت قلب خوات بن جبير وألهمه تذكُّر ذلك السلاح الخفي .

وقول اليهودي حينما طعنه خوات بن جبير : « السَّبُع » يفيد بأن ذلك اليهودي قد اعتقد بأن سبعا قد هجم عليه فبقر بطنه ولم يكن يتوقع بأن أسيره قد اختلس مغْولَه بتلك الخفَّة والخفية وأنه هو الذي قضى عليه .

ومن ذلك ما أخرجه الواقدي من خبر عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، قال : خرج نَبّاش بن قيس ليلةً من حصنهم يُريد المدينة ، ومعه عشرةٌ من اليهود من أشدّائهم وهم يقولون : عسى أن نُصيب منهم غرّة .

فانتهوا إلى بَقيع الغرْقَد ، فيجدون نفرًا من المسلمين من أصحاب سَلَمَة بن أسْلَم بن حُرَيش ، فناهضوهم فراموهم ساعةً بالنَّبل ، ثم انكشف القُرظيون مُولّين . وبلغ سَلَمَة بن أسْلَم وهم بناحية بني حارثة ، فأقبل في أصحابه حتى انتهوا إلى حصونهم ، فجعلوا يُطيفون بحصونهم حتى خافت اليهود ، وأوقدوا النيران على آطامهم وقالوا : البَيات ! وهدموا قَرْنَي [1] بئر لهم وهوّروها [2] عليهم ، فلم يقدروا يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفًا شديدًا [3] .

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم في تمام اليقظة والحذر ، فكانت فصائلهم تجوب أنحاء المدينة في الليل حتى لم تترك لليهود أيَّة فرصة للإغارة على النساء والذراري ونحوهم .

وفي هذا الخبر مثل للجهود الكبيرة التي كان يبذلها سلمة بن أسلم ابن حريش وأصحابه في حراسة المدينة من داخلها .

ونجد أن هؤلاء الأبطال لم يكتفوا بردِّ غارة اليهود بل تبعوهم إلى أحد حصونهم وأرهبوهم وهدموا بئرًا لهم خارج الحصن حتى أصبحوا محصورين في حصونهم لايستطيعون الخروج .

* * *

---

(١) هما ما يرفع من البناء إلى جانبي البئر لتوضع فوقهما الخشبة التي تُعلّق عليها البكرة .

(٢) أي هدموها .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٢ .

٤ - مواقف في خبر المفاوضة مع غطفان -

قال ابن إسحاق : فلما اشتدَّ على الناس البلاء ، بعث رسول الله ﷺ - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم ، عن محمد بن مُسلم بن عبيد الله بن شهاب الزُّهري - إلى عُيَيْنة بن حصن بن حُذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف ابن أبي حارثة المُرّي وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولاعزيمة الصُّلح إلا المُراوضة في ذلك .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة، فذكر ذلك لهما ،واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله ، أمرًا تحبه فنصنعه ، أم شيئًا أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ، أم شيئًا تصنعه لنا ؟ قال بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قَوْس واحدة ، وكَالَبُوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر مَّا .

فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولانعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ ! والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله ﷺ : فأنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفة ، فمحا ما

فيها من الكتاب ، ثم قال ليَجْهدوا علينا [1] .

وأخرجه الواقدي من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب، وذكر نحوه مع بعض الزيادات ، وقد جاء في آخره : فرجع عُيَيْنة والحارث وهما يقولان : والله ، ما نرى أن ندرك منهم شيئًا ، ولقد أُنْهِجَتْ للقوم بصائرهم ! والله ما حضرتُ إلا كُرْهًا لقوم غلبوني ، وما مُقامنا بشيء ، مع أن قُرَيشًا إن علمت بما عرضنا على محمد عرفَتْ أنا قد خذلناها ولم ننصرها . قال عُيينة : هو والله ذلك ! قال الحارث : أمَا إنَّا لم نُصبْ بتعرضنا لنصر قريش على محمد ، والله لئن ظهرت قُريشٌ على محمد ليكونن الأمرُ فيها دون سائر العرب ، مع أني أرى أمر محمد أمرًا ظاهرًا والله ، لقد كان أحبار يهود خيبر وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كُتُبهم أنه يُبعث نبيٌّ من الحرم على صفته .

قال عُيينة : إنا والله ما جئنا ننصر قُريشًا ، ولو استنصرنا قُريشا ما نصرتْنا ولا خرجَتْ معنا من حرمها . ولكني كنتُ أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكرٌ مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة ، مع أنَّا ننصر حُلفاءَنا من اليهود فهم جَلَبونا إلى ما هاهنا .

قال الحارث : قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف ، والله لتقاتلَنَّ عن هذا السعف ، مابقي منها رجلٌ مقيم ، وقد أجدب الجَنابُ وهلك الخُف والكُراع [2] . قال عُيينة : لاشيء .

فلما أتيا منزلهما جاءَتهما غطفان فقالوا : ماوراءكم ؟ قالوا : لم يتم

---

(1) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(2) أي أجدبت الأرض القريبة من المدينة وانتهت المراعي وهلكت الإبل والخيل .

الأمرُ ، رأينا قوماً على بصيرة وَبذْل أنفسهم دون صاحبهم ، وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقُريش تنصرف ولاتُكلِّم محمداً ! وإنما يقع حَرُّ محمد ببني قريظة ، إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعةً حتى يُعطوا بأيديهم . قال الحارث : بُعْدًا وسُحقًا ! محمدٌ أحبُّ إلينا من اليهود [1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : قول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما « يارسول الله أمرًا تحبه فنصنعه ، أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئًا تصنعه لنا ؟ » يعتبر غاية في الاستسلام لله تعالى والأدب مع النبي ﷺ وطاعته ، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام : الأول أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى فلا مجال لإبداء الرأي بل لابد من التسليم والرضى ، والثاني : أن يكون شيئا يحبه رسول الله ﷺ باعتباره رأيه الخاص ، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك ، الثالث : أن يكون شيئًا عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم ، فهذا هو الذي يكون مجالا للرأي .

ولما تبين للسَّعدين من جواب الرسول ﷺ أنه أراد القسم الثالث أجاب سعد بن معاذ بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان حيث بين أن

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٧ - ٤٨٠ ، وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني من حديث ابن المسيب مختصرا - مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٦٧ ، رقم ٩٧٣٧ ، وأخرجه البزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مختصرًا - كشف الأستار ٢/ ٣٣١ ، رقم ١٨٠٣ ، وذكره الهيثمي من رواية البزار والطبراني وقال : فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٣٢ - .

الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهلية فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام .

وقد أُعجبَ النبي ﷺ بجواب سعد وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح الجهادية القوية ، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح مع غطفان .

وفي المحاورة التي ذكرها الواقدي في روايته بين زعيمي غطفان يتبين لنا انخفاض مستوى الروح القتالية لديهم وأنهم في تردد من أمرهم وندم على ما أقدموا عليه من موافقة قريش واليهود على غزو المدينة ، وكان هذا التردد وضآلة أملهم في الحصول على تمر المدينة مما جعل مجهودهم في القتال ضعيفا .

* * *

٥ – صور من المعركة ومواقف لرسول الله ﷺ وأصحابه –

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون ، وعدوُّهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عَبدوُدٍّ بن أبي قيس[١] ، أخو بني عامر بن لُؤَيّ ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهُبَيرة بن أبي وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب الشاعر ابن مرداس أخو بني محارب بن فهر ، تلبسوا للقتال [٢] ، ثم خرجوا على خَيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة ، فقالوا : تهيَّئوا يابني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تُعنق بهم خيلهم[٣]، حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها .

قال ابن إسحاق : ثم تيمَّموا مكانا ضيِّقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبَّخة ، بين الخندق وسَلْع ، وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام في نفر مع من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثَّغرة التي أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفُرسان تُعنق نحوهم .

وكان عمرو بن عبد وُد قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أُحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلما ، ليُرى مكانهُ . فلما وقف هو وخيله ، قال من يبارز ؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب ، فقال له

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : عمرو عبد بن أبي قيس .

(٢) يعني تهيأوا واستعدوا له .

(٣) أي تسرع بهم والعنق بفتحتين ضرب من السير السريع .

ياعمرو ، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ، قال له عليّ فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ، قال : لاحاجة لي بذلك ، قال : فإني أدعوك إلى النِّزال ، فقال له : لمَ يابن أخي ؟ فو الله ما أحب أن أقتلك ، قال له عليٌّ : لكني والله أحبّ أن أقتلك ، فَحمي عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه ، وخرجت خيلهم مُنهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربةً .

قال ابن إسحاق : وقال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه في ذلك :

نَصَر الحجارةَ من سفاهَة رأيه ... ونَصرتُ ربَّ محمد بصوَابي

فصَددت حين تَركته متجَدّلا ... كالجذع بين دكادك ورَوابي [1]

وعَففت عن أثوابه ، ولَوَ انَّني ... كنتُ الْمُقطَّر بزَّني أثوابي [2]

لاتَحْسبُنَّ اللهَ خاذلَ دينه ... وَنبيّه يامَعْشر الأحزاب [3]

هذا الخبر يبين شجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإقدامه الجرئ على المهالك ، فلقد كان عمرو بن عبد ودّ من المشهورين بالشجاعة والخبرة الحربية فالإقدام على مبارزته مغامرة لايُقدم عليها من له في الحياة رغبة .

---

(١) الدكادك جمع دكدك وهو ماغلظ من الأرض والروابي جمع رابية وهي المكان المرتفع .

(٢) المقطر أي المقتول وبزنى يعني سلبني .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠ ، وأخرج الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما خبر قتل علي عمرو بن عبدودّ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي - المستدرك٣/ ٣٢ - .

وإذا نظرنا إلى المتبارزين من ناحية الكفاءة الحربية نجد أن بينهما فرقا كبيرا ، فعمرو بن عبدوُدّ يمتاز بعدة عوامل ترجح كفته ، منها شهرته المستفيضه بالشجاعة والقوة ، وهذه الشهرة تمنحه قوة معنوية بينما تضعف من قوة خصمه وتصيبه بالرعب والهلع ، ومنها خبرته الحربية فهو متقدم في السن ، وكلما كان الإنسان أكثر ممارسة للحرب كان أكثر خبرة وأقدر على اتقاء ضربات الخصم واغتنام فرص الهجوم .

ولكن مع صغر سنّ علي رضي الله عنه وقلة خبرته الحربية فإنه أقدم على مبارزة ذلك الرجل العنيف الشجاع ، فنصره الله تعالى عليه فأرْدَاه قتيلا ، وكان ذلك كافيا لإرهاب أصحابه الذين فروا وتركوا الميدان .

وهكذا حدث ما يشبه الخوارق حيث أقدم شاب حديث السن والخبرة على مبارزة فارس عظيم من أشهر فرسان العرب ، كما يفيد ذلك ما جاء في رواية أخرى لابن إسحاق ذكرها السهيلي وفيها أن عمرو بن عبد وُدّ حينما دعا إلى المبارزة برز له علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ : اجلس إنه عمرو ، قالها مرتين وفي الثالثة قال علي : وإن كان عمرًا فأذن له رسول الله ﷺ (1) .

وإنه لمشهد عظيم وامتحان رهيب يظهر فيه الإيمان الراسخ والشجاعة الفذة حيث تتم المبارزة على ملأ من الطرفين ويكون لنتائجها الأثر البالغ في رفع المعنويات أو تحطيمها ، ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثال في ذلك حيث كان الأبطال وأقوياء الإيمان يتسابقون إلى ساحة الميدان وتكون لهم الغلبة في أكثر الأحوال ، بل إنه من النادر جداً أن يتفوق

---

(1) الروض الأنف ٦/ ٣١٧ .

عليهم الأعداء في هذا المجال ، لأنه يستحيل أن يوجد من يبذل طاقته كاملة ويتمنى الموت غيرُ المسلمين حيث إن ما يقصده المسلمون هو رضوان الله تعالى والسعادةُ الأخروية ، وإن مما يوقن به المؤمن أن مما يعجل بحصوله على ذلك أن يزجَّ بنفسه في المخاطر من أجل إعزاز دين الله تعالى ، أما غير المسلم فإن الذين يقصدهم بتضحيته لا يستفيد منهم إلا في هذه الحياة الدنيا ، ومن الطبيعي أن يحرص على استبقاء نفسه ليفوز بثمرات نصره ، وهذا يعوقه عن بذل القدر الكافي من الطاقة فيتفوق عليه المسلم المخلص بإذن الله تعالى .

وقال الواقدي بعد أن ذكر هذا الخبر : فلما رجعوا إلى أبي سُفيان قال : هذا يومٌ لم يكن لنا فيه شيء ، ارجعوا ! فنفرت قُريش فرجعت إلى العقيق ، ورجعت غطفان إلى منازلها ، واتَّعدوا يغدون جميعًا ولا يتخلف منهم أحد . فباتت قُريش يُعبئون أصحابهم ، وباتت غطفان يُعبئون أصحابهم ، ووافوا رسول الله ﷺ بالخندق قبل طلوع الشمس . وعبأ رسولُ الله ﷺ أصحابه وحضَّهم على القتال ، ووعدهم النصر إن صَبَروا ، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم فأخذوا بكل وجه من الخندق .

قال : فحدثني الضحاك بن عُثمان ، عن عُبيد الله بن مقْسَم ، عن جابر بن عبد الله قال : قاتلونا يومهم وفرَّقوا كتائبهم ، ونحَّوا إلى رسول الله ﷺ كتيبةً غليظةً فيها خالد بن الوليد ، فقاتلهم يومه ذلك إلى هَويٍّ من الليل ، ما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحدٌ من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم ، وما قدر رسول الله ﷺ على صلاة الظُّهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ، فجعل أصحابُه يقولون : يارسول الله ، ما صلَّينا!

فيقول : ولا أنا والله ما صلَّيت! حتى كشفهم الله تعالى فرجعوا متفرقين. فرجعت قُريش إلى منزلها ، ورجعت غطفان إلى منزلها ، وانصرف المسلمون إلى قُبَّة رسول الله ﷺ .

وأقام أُسيد بن حُضَير على الخندق في مائتين من المسلمين ، فهم على شفير الخندق إذ كرت خيلٌ من المشركين يطلبون غرَّةً ، عليهم خالد بن الوليد ، فناوشوهم ساعةً ومع المشركين وَحشيٌّ ، فزرق الطُّفيلَ بن النُّعمان من بني سَلمة بمزراقه فقتله ، فكان يقول : أكرم الله تعالى حمزة والطُّفيل بحربتي ولم يُهنِّي بأيديهما .

فلما صار رسول الله ﷺ إلى موضع قُبَّته أمر بلالاً فأذَّن . وكان عبد الله بن مسعود يقول : أمره رسول الله ﷺ فأذَّن وأقام للظهر ، وأقام بعدُ لكل صلاة إقامةً إقامةً .

وقد حدثني ابنُ أبي ذئب - وهو أثبت الحديثين عندنا - قال : أخبرني المقبُري ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري ، عن أبيه قال : جلسنا يوم الخندق حتى كان بعد المغرب بهَويٍّ من الليل حتى كُفينا ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ ورَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] . فدعا رسول الله ﷺ بلالاً فأمره ، فأقام صلاة الظهر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها . ثم أقام صلاة العصر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها . ثم أقام المغرب فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها ، ثم أقام العشاء فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها . قال وذلك قبل أن يُنزل الله صلاة الخوف : ﴿ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة : ٢٣٩] (١) .

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣ .

وهذا يوم من أشد أيام الخندق حيث طمع المشركون في إشغال المسلمين من جميع الجهات بالكتائب ليتمكنوا من ردم جزء من الخندق وتجاوزه بخيولهم ، ولكن المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ كانوا واقفين جميعا في مواقعهم من الخندق من صباح ذلك اليوم إلى ما بعد العشاء ، ولم يستطع رسول الله ﷺ ولا أصحابه أن يُصلُّوا ذلك اليوم ، ولم تكن شُرعت بعدُ صلاة الخوف كما جاء في هذه الرواية ، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الصلوات قضاء .

ولقد جرت محاولات أخرى لبعض فرسان المشركين كما جرت مناوشات بالرمي بين المسلمين والمشركين ومن ذلك ما أخرجه الواقدي من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : كنتُ مع رسول الله ﷺ في الخندق فلم أفارقه مُقامه كله ، وكان يحرس بنفسه في الخندق ، وكنا في قُرٍّ شديد[1] ، فإني لأنظر إليه قام فصلَّى ما شاء الله أن يُصلي في قبته ، ثم خرج فنظر ساعةً فأسمعُه يقول : هذه خيل المشركين تُطيف بالخندق ، من لهم ؟ ثم نادى : ياعَبَّاد بن بشر . فقال عباد : لبيك ! قال : أمعك أحد؟ قال : نعم ، أنا في نفر من أصحابي كنَّا حول قُبتك .

قال : فانطلق في أصحابك فأطف بالخندق ، فهذه خيل من خيلهم تُطيف بكم يطمعون أن يُصيبوا منكم غرَّة . اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم ، لايغلبُهم غيرُك! فخرج عباد بن بشر في أصحابه ، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يُطيفون بمضيق الخندق . وقد نذر بهم المسلمون ، فرموهم بالحجارة والنبل . فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم بالرمي فانكشفوا راجعين إلى منزلهم . ورجعتُ

(١) القر - بضم القاف وتشديد الراء المكسورة - هو البرد .

إلى رسول الله ﷺ فأجدُه يُصلِّي فأخبرته . قالت أم سلمة : فنام حتى سمعتُ غَطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر، فخرج فصلى بالمسلمين . فكانت تقول : يرحم الله عَباد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقُبَّة رسول الله يحرسها أبدًا (١) .

كما أخرج الواقدي في بيان ذلك من حديث أيوب بن النُّعمان ، عن أبيه ، قال : كان أُسيد بن حُضير يحرس الخندق في أصحابه ، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفُره (٢) الخيل ، فإذا طليعةٌ من المشركين ، مائة فارس أو نحوها ، عليهم عمرو بن العاص يُريدون أن يُغيروا إلى المسلمين ، فقام أُسيد بن حُضير عليها بأصحابه ، فرموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا عنا وولَّوا . وكان في المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسي ، فقال لأُسيد : إنَّ هذا مكان من الخندق متقارب ، ونحن نخاف تطفُره خيلهُم ، وكان الناس عجلوا في حفره ، وبادروا فباتوا يُوسعونه حتى صار كهيئة الخندق وأمنوا أن تطفُره خيلهم ، وكان المسلمون يتناوبون الحراسة ، وكانوا في قُرٍّ شديد وجوع (٣) .

ومما يبين جهود المسلمين في جهاد العدو ما أخرجه الواقدي من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : والله ، إني لفي جوف الليل في قُبَّة النبي ﷺ وهو نائم ، إلى أن سمعتُ الهَيْعة(٤) ، وقائل يقول : ياخيل

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٤ .

(٢) الطَّفر هو الوثوب في ارتفاع .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٤) الهيعة : الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو (النهاية ، ج٤ ، ص ٢٦١) .

الله! وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين « ياخيل الله » ففزع رسول الله ﷺ بصوته فخرج من القُبَّة ، فإذا نفرٌ من الصحابة عند قُبته يحرسونها ، منهم عباد بن بشر ، فقال : مابالُ الناس ؟ قال عباد : يارسول الله ، هذا صوت عمر بن الخطاب ، الليلة نوبته يُنادي : «ياخيل الله » والناس يثوبون إليه ، وهو من ناحية حُسيكة مابين ذُباب ومسجد الفتح . فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر : اذهب فانظر ، ثم ارجع إليَّ إن شاء الله فأخبرني !

قالت أم سلمة : فقمتُ على باب القُبَّة أسمعُ كلَّ ما يتكلمان به . قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ قائمًا حتى جاءَه عباد بن بشر فقال : يارسول الله ، هذا عمرو بن عبد في خيل المشركين ، معه مسعود بن رُخية في خيل غطفان ، والمسلمون يُرامونهم بالنبل والحجارة .

قالت : فدخل رسول الله ﷺ ، فلَبس درعه ومغفَره ، وركب فرسه ، وخرج مع أصحابه ، حتى أتى تلك الثُّغْرَة ، فلم يلبث أن رجع وهو مسرورٌ فقال : صرَفهم الله ، وقد كثُرت فيهم الجراحة .

قالت : فنام حتى سمعتُ غطيطه ، وسمعت هائعةً أخرى ، ففزع فوثب فصاح : ياعباد بن بشر ! قال : لبيك ! قال : انظر ماهذا . فذهب ثم رجع فقال : هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين ، معه عُيينة بن حصن في خيل غطفان عند جبل بني عُبيد ، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل ، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه وركب فرسه ، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة ، فلم يأتنا حتى كان السحر ، فرجع وهو يقول : رجعوا مفلولين ، قد كثرت فيهم الجراحة . ثم صلَّى بأصحابه الصبح وجلس .

فكانت أم سلمة تقول : قد شهدتُ معه مشاهد فيها قتالٌ وخوف - المُرَيسيع ، وخَيْبر ، وكنا بالحُديبية ، وفي الفتح ، وحُنين - لم يكن من ذلك شيءٌ أتعبَ لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق . وذلك أنَّ المسلمين كانوا في مثل الحَرَجة [1] ، وأن قُريظة لانأمنها على الذراري ، والمدينة تُحرَس حتى الصباح ، يُسمع تكبير المسلمين فيها حتى يُصبحوا خوفًا ، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [**الأحزاب** : ٢٥] [2] .

وأخرج الواقدي أيضا من حديث محمد بن مسلمة ، قال : كنا حول قُبَّة رسول الله نحرسه ، ورسول الله ﷺ نائمٌ نسمع غطيطه ، إذ وافت أفراسٌ على سَلْع ، فبصُر بهم عباد بن بشر فأخبرنا بهم . قال : فأمضي إلى الخيل ، وقام عبَّاد على باب قُبة النبي ﷺ آخذاً بقائم السيف ينظرني ، فرجعتُ فقلت : خيل المسلمين أشرفت ، عليها سلمة بن أسلم بن حُريش ، فرجعتُ إلى موضعنا . ثم يقول محمد بن مسلمة : كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرجه الله .

كما أخرج من طريقين عن جابر بن عبد الله ، قال : كان خوفنا على الذَّراريّ بالمدينة من بني قريظة أشدَّ من خوفنا من قُريش ! حتى فرج الله ذلك .

قالوا : فكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سُفيان بن حرب

---

(١) الحرجة الشجر الملتف ، وهو تعبير عن التفاف الأعداء عليهم .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٦ - ٤٦٧ .

في أصحابه يومًا ، ويغدو هُبَيرة بن أبي وهب يومًا ، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يومًا ، وضرار بن الخطاب يومًا ، فلا يزالون يُجيلون خيلهم ما بين المُذاد إلى راتج ، وهم في نَشَر[1] من أصحابهم ، يتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ، حتى عظُم البلاءُ وخاف الناسُ خوفًا شديدًا ، ويُقدِّمون رُماتهم - وكان معهم رُماة ، حبّان بن العَرِقة ، وأبو أسامة الجُشَمي ، وغيرهم من أفناء العرب[2] [3] .

ومما يبين شدة المعاناة التي كان يعاني منها أصحاب رسول الله ﷺ ما أخرجه الواقدي قال : فحدثني قُدامة بن موسى ، عن عائشة بنت قُدامة ، عن أبيها ، قال : بعثَنَا ابن أختنا ابن عمر يأتينا بطعام ولُحُف وقد بلغْنا من الجوع والبرد ، فخرج ابنُ عمر حتى إذا هبط من سَلْع - وذلك ليلاً - غلبته عيناه فنام حتى أصبح . فاهتممنا به فخرجتُ أطلبه فأجدُه نائمًا ، والشمس قد ضَحته ، فقلتُ : الصلاةَ ، أصلَّيتَ اليوم؟ قال : لا . قلتُ : فصلِّ . فقام سريعًا إلى الماء ، وذهبتُ إلى منزلنا بالمدينة فجئتُ بتمر ولحاف واحد ، فكنَّا نلبس ذلك اللحاف جميعًا - من قام منا في المحْرس ذهب مقرورًا ثم رجع حتى يدخل في اللِّحاف ، حتى فرج الله ذلك . وقال رسول الله ﷺ : نُصرْتُ بالصَّبا وأُهلكَتْ عادٌ بالدَّبُور[4] .

في هذه الأخبار تبينت لنا جهود كبيرة في ليالي ذلك الحصار من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وذلك في حراسة الخندق والمرابطة حوله حتى

---

(١) أي كانوا متنشرين متفرقين (النهاية ، ج٤ ، ص ١٤٤) .

(٢) أي من أخلاطهم الذين لايعرف نسبهم .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٨ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ .

لايتجاوزه المشركون ، وكان ﷺ لاينام في الليل إلا قليلا وبشكل متقطع للهمِّ الكبير الذي يحمله لأصحابه ودولته الصغيرة المحاربة من كل جانب.

وكان الأعداء يوجِّهون كتائبهم الكثيرة على طول الخندق ليشغلوا المسلمين جميعا ويحولوا بينهم وبين الراحة مؤمِّلين أن يحصلوا من بعضهم على غفلة أو استسلام لنوم ليستطيعوا القيام بردم الخندق والإغارة بخيلهم على جيش المسلمين المفرَّق للحراسة والحماية في مقابل الخندق وداخل المدينة ، ولكنهم فشلوا في كل محاولاتهم بالرغم من قلة عدد المسلمين وقلة إمكاناتهم المادية وسعة المنطقة التي كان عليهم أن يحموها من الأعداء ، وهذا دليل على قوة شعور الصحابة بالمسئولية وتجردهم من الأنانية ، واليقظة التامة من قائدهم الأعلى ﷺ وقادتهم الذين ينوبون عنه في إدارة العمل الجهادي .

وخبر أم سلمة رضي الله عنها يبين شدة ضغط المشركين في هجومهم الليلي ، فقد فزع النبي ﷺ من نومه مرتين في ليلة واحدة - على قلة نومه - ولبس سلاحه وذهب هو ومن معه من الصحابة إلى موضع الخطر حتى اطمأن على وضع المسلمين ، ورأى اندحار المشركين.

وإن في رسول الله ﷺ قدوة حسنة للقادة حيث لم يلزم مكان قيادته ويكتفي بإصدار الأوامر ، بل كان يذهب بنفسه إلى مواضع الخطر - بالرغم من كفاءة قادته - ليطمئن طمأنينة كاملة ، وليَسُنَّ للقادة من بعده المنهج الحكيم في إدارة المعارك الحربية .

هذا ولم تقتصر جهود المسلمين على الجهاد الدفاعي ، بل كان لهم

هجوم بالرماية ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه الحافظ البزار من حديث محمد بن محمد بن الأسود عن عامر بن سعد قال : قال سعد : - وذكر النبي ﷺ - فقال : لقد رأيته يوم الخندق ضحك حتى بدت نواجذه، قال : قلت : كيف ؟ (١) قال : كان رجل معه تُرسان - وكان سعد راميًا - فكان يقول كذا وكذا بالتُّرسَين يغطي جبهته فنزع له سعد بسهم ، فلما رفع رأسه رماه فلم يُخْطِ هذه منه - يعني جبهته - وانقلب وأشال برجله ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، قال : قلت : من أي شيء ضحك ؟ قال : من فعل الرجل (٢) .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة (٣) .

وهذا مثل من أمثلة مهارة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرماية حيث أصاب أحد رماة المشركين من بُعْد لوجود الخندق والمسافة بينه وبين المسلمين وبينه وبين المشركين بالرغم من كون ذلك الرامي متترسًا بترسين .

* * *

---

(١) القائل هو محمد بن محمد بن الأسود والمسئول هو عامر بن سعد .

(٢) كشف الأستار ٢/ ٣٣٤ رقم ١٨٠٨ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ١٣٥ - ١٣٦ .

٦ - إصابة سعد بن معاذ -

قال ابن إسحاق : وحدثني أبو ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري ، أخو بني حارثة : أن عائشة أمّ المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة .

قال : وكانت أم سعد بن مُعاذ معها في الحصن ، فقالت عائشة : وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب ، فمرَّ سعد وعليه درع له مُقلَّصة[1] ، قد خرجت منها ذراعه كلُّها ، وفي يده حربته يرقَدُّ بها[2] ويقول .

لَبِّثْ قليلا يَشهَد الهَيجا حَمَلْ[3] لا بأس بالموت إذا حانَ الأجَل

قال فقالت له أمه : الْحقْ أي ابني ، فقد والله أخَّرت ، قالت عائشة : فقلت لها : يا أمّ سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي ، قالت : وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه ، فرُمي سعدُ بن معاذ بسهم ، فقُطع منه الأكحل[4] ، رماه - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة - حبَّانُ بن قَيس ابن العَرقة ، أحد بني عامر بن لُؤَيّ ، فلما أصابه قال خُذْها مني وأنا ابن العرقة ، فقال له سعد : عرَّق الله وجهك في النار ، اللهمَّ إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، فإنه لاقوم أحبَّ إليّ أن أجاهدهم من قوم آذَوْا رسولك وكذّبوه وأخرجوه ، اللهمّ وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلهُ لي شهادة ،

---

(١) أي قصيرة غير سابغة .

(٢) يعني يسرع في مشيته كالنافر .

(٣) هو حمل بن سعدانة الكلبي ، وهذا البيت له وقد تمثل به سعد بن معاذ رضي الله عنه .

(٤) هو عرق في الذراع .

ولاتُمتْني حتى تقرّ عيني من بني قُريظة [1] .

في هذا الخبر يظهر لنا مثل من رغبة الصحابة رضي الله عنهم الشديدة في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وشوقهم البالغ للشهادة ، ويتبين لنا من دعاء سعد بن معاذ أنه كان يعيش تلك الساعات التي تَلَتْ إصابته بين أملين كبيرين ، أحدهما جهاد القوم الذين آذوا رسول الله ﷺ وأخرجوه وحاربوه ، والآخر أن تحصل له الشهادة من جرحه ذلك ، فربما لايصاب بعد ذلك فلا تحصل له الشهادة .

إن هذه الأماني السامية والأهداف العالية تُظهر لنا تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الإيمان الراسخ والعلم بالآخرة علم اليقين الذي يكاد أن يشبه علم المشاهدة .

وقد استجاب الله تعالى دعاء سعد الثاني فنال الشهادة من جرحه ذلك بعدما أقرَّ عينه من بني قريظة كما سيأتي ، ولم يُبْقه تعالى لحرب قريش لأنه في علمه سبحانه أن الحرب بين المسلمين وقريش قد انتهت .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧١-٢٧٣ .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث طويل عن الخندق وبني قريظة - الفتح الرباني ١٢/ ٨١ - ٨٣ - ، وذكره الهيثمي وقال : رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد٦/ ١٣٦-١٣٨- ، وذكره الحافظ ابن كثير وقال : إسناده جيد وله شواهد من وجوه كثيرة - سيرة ابن كثير٣/ ٢٣٦ - ٢٣٨ - .

٧ – موقف نعيم بن مسعود في تفريق الأحزاب –

قال ابن إسحاق : ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قُنفذ بن هلال بن خَلاوة بن أشْجع بن رَيْث بن غَطفان ، أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إني قد أسلمتُ ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنَّا ، إن استطعت ، فإن الحرب خُدَعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديما في الجاهلية ، فقال يابني قريظة ، قد عرفتم وُدِّي إيَّاكم ، وخاصة مابيني وبينكم ، قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتَّهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون على أن تَحَوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأو نُهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوْا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولاطاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم وُدّي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عَلَيّ حقًا أن أبلغكموه ، نُصْحا لكم ، فاكتموا عني ، فقالوا : نفعل ، قال : تعلَّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم

وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنُعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أنْ نعم . فإن بعثت إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدًا .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أصْلي وعشيرتي ، وأحبّ الناس إليّ ، ولا أُراكم تتهموني ، فقالوا : صدقت . ما أنت عندنا بمتهم ، قال : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخفّ والحافر فاغدوا للقتال حتى نُناجز محمدا ، ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لانعمل فيه شيئًا ، وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدَثا ، فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا ، حتى تعطونا رُهُنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضَرّستكم الحرب ، واشتدّ عليكم القتال أن تَنْشمروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسُل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش

وغطفان : والله إن الذي حدثكم عنه نُعيم بن مسعود لَحَقّ ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لاندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نُعيم بن مسعود لَحقّ، ما يريد القوم إلا أن يُقاتلوا ، فإن رأوا فرصةً انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لانقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا ، فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الرِّيح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قُدُورهم ، وتطرح أبنيتهم [١] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : ذلك التوجيه العظيم من رسول الله ﷺ لنعيم بن مسعود حيث قال له : « إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » [٢] فقد هداه النبي ﷺ إلى الطريق الذي يسلكه في حرب الكفار ونصر المسلمين ، وأعطاه المفاتيح اللازمة لذلك حيث وجهه إلى بذل جهده في تخذيل الأحزاب ، وأبان له أن الكذب في هذه الحال عمل

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٩ .

وأخرجه الواقدي من حديث عاصم الأشجعي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٢/ ٤٨٠-٤٨٤- .

(٢) قوله « فإن الحرب خدعة » أخرجه الإمام البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الحرب خدعة » - صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٣٠(٦/ ١٥٨)- .

صالح لأنه في الحرب ، وقد يكون كسب الحرب في خدعة يدبرها فرد واحد لأعدائه .

وهذا مثال على حسن تصرف النبي ﷺ واغتنامه الفرص المناسبة لكسب المواقف لصالح المسلمين وتوجيه الرجال بما يتناسب مع كفاءاتهم ، فقد كان نعيم معروفًا قبل ذلك بالمقدرة الفائقة على المخادعة والرأي الحصيف الذي يؤثر به على الناس .

إنها كلمات معدودات صدرت من النبي ﷺ في إجابة هذا الرجل ولكنها كلمات خالدات ، كلمات لها أثر بالغ في توجيه هذا الجندي المحنك الذي تبوأ منزلة عالية من الثقة بين العرب ، والنبي ﷺ يعلم بثاقب بصره وعظيم خبرته بالرجال أن هذا الجندي الذي كسبه الصف الإسلامي ولم يعلم الكفار بإسلامه بإمكانه أن يقوم بجهد كبير من التخذيل عن المسلمين والإيقاع بين الكفار ففتح له الطريق الذي يمكن بولوجه منه أن يقدِّم للمسلمين خدمة عالية تغير من موازين المعركة .

ثانيًا : موقف كبير لنُعيم بن مسعود رضي الله عنه حيث وعى هذا التوجيه النبوي وطبقه على أوسع نطاق ، فقام من تَوِّه يُفكِّر بالخطة الحكيمة التي يستطيع بها أن يوغر صدور يهود بني قريظة على الأحزاب من قريش وغطفان وأن يوغر صدور الأحزاب على بني قريظة ، وذلك لانتزاع الثقة فيما بينهم وجعل كل فريق يتهم الآخر ويشك في نواياه ، فقام بخطة التخذيل بين الأعداء التي جاءت في هذا الخبر .

إن هذا الخبر يعتبر مثلا عاليا في السياسة الحربية ، حيث توصَّل نعيم

ابن مسعود إلى تدبير مُحكَم فرق به بين الأحزاب ، وكان عاملا مساعدا في التأثير عليهم ودفعهم إلى الرحيل بعد العامل الأول المهم الذي كان بتسليط الله تعالى عليهم جنوده من الملائكة عليهم السلام والريح الشديدة .

* * *

٨ – موقف لحذيفة ووصف لوضع المسلمين –

أخرج الإمام البيهقي من طريق أبي عبد الله الحاكم من حديث عبد العزيز ابن أخي حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : ذكر حذيفة مشاهدهُم مع رسول الله ﷺ ، فقال جُلساؤُهُ : أما والله لو كنا شهدنا ذلك لفعلنا وفعلنا ، فقال حذيفة : لاتمنوا ذلك ، فلقد رأيُتنا ليلة الأحزاب ونحن صافُّون قُعود : أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقُريظة اليهود أسفل منا ، نخافهم على ذراربنا ، وما أتَتْ علينا ليلة قط أشدُّ ظلمةً ولا أشد ريحًا في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمةٌ ، ما يرى أحدٌ منا أصبعهُ .

فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عَوْرة وما هي بعورة ، فما يستأذنه أحدٌ منهم إلا أذن له ، فيأذن لهم ، فيتسللون .

ونحن ثلثمائة ونحو ذلك [١] ، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجُلاً رجلاحتى مر عليَّ ، وما عليَّ جُنَّةٌ من العَدُوِّ ، ولا من البرد ، إلا مرْطٌ لامْرَأتي ما يجاوز ركبتي ، قال : فأتاني وأنا جاث على ركبتي ، فقال من هذا ؟ فقلت : حُذيفة ، فقال : حذيفةُ ! قال : فتقاصرتُ بالأرض ، فقلتُ ، بلى يارسول الله كراهية أن أقوم ، قال : قُمْ، فقمت ، فقال : إنه كائن في القوم خبرٌ ، فأتني بخبر القوم ، قال وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدّهم قُرًا .

فخرجت ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم احفظه من بين يديه ، ومن

---

(١) يعني الذين كانوا حول النبي صلى الله عليه وسلم في مركز القيادة ، أما بقية الصحابة فقد كانت لهم مهمات جهادية في ساحة المعركة وداخل المدينة .

خلفه، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته ، قال : فو الله ما خلق الله فَزَعًا ، ولا قُرًّا ، في جوفي إلا خرج من جوفي فما أجد منه شيئًا ، قال فلما ولَّيت ، قال ياحذيفة لاتُحْدثنَّ في القوم شيئًا حتى تأتيني .

فخرجت حتى إذا دنوت من عَسْكر القوم ، نظرت في ضوء نار لهم تُوقَد وإذا رجل أدْهمُ ضخم ، يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرتهُ ويقول : الرَّحيل ، الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعتُ سهمًا من كنانتي أبيض الريش فأضعه على كبد قوسي ، لأرميه في ضوء النار ، فذكرت ، قول رسول الله ﷺ لاتُحدثن شيئًا حتى تأتيني ، فأمسكت ورَدَدْتُ سهمي في كنانتي .

ثم إني شجَّعتُ نفسي حتى دخلتُ المعكسر ، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر ، يقولون : يا آل عامر الرحيل ، الرحيل ، لامقام لكم ، إذا الريح في عسكرهم ، ما تجاوز عسكرهم شبرًا ، فو الله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم ، وفَرَسَتْهم الريح تضربهم بها .

ثم خرجتُ نحو النبي ﷺ فلما انتصف بي الطريق ، أو نحو ذلك ، إذا أنا بنحو عشرين فارسًا ، أو نحو ذلك مُعْتمِّين ، فقالوا : أخبر صاحبك ، أن الله كَفَاهُ القوم ، فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو مشتملٌ في شملة يصلي ، فو الله ما عدا أن رجعتُ راجعني القُرُّ [1] وجعلت أقَرقفُ ، فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده ، وهو يصلي فدنوتُ منه ، فأسبل علي شملتهُ ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبهُ أمرٌ صلى ، فأخبرته

(١) القرّ بضم القاف وتشديد الراء البرد .

خبر القوم ، وأخبرته أني تركتهم يترحَّلون ، فأنزل الله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] [١].

في هذا الخبر وصف بليغ للحال الشديدة التي واجهها رسول الله ﷺ وأصحابه ، حيث الخوف والجوع والبرد القارس وعدم توفر الأكسية الواقية من البرد إضافة إلى الريح الشديدة آخر ليلة ، ومن كان يعاني هذه المعاناة القاسية لايُنتظر منه عادة أن ينجح في العمل ا لذي توجَّه إليه ، ولكن مع ذلك نجح المسلمون في حماية المدينة من جميع الأحزاب الذين هم خارج المدينة من قريش وغطفان ، والذين هم داخلها وهم يهود بني قريظة ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان واليقين عند الصحابة رضي الله عنهم مما دفعهم إلى بذل كل ما لديهم من طاقة وجهد حتى أصبحوا وكأنهم قد ضوعفوا في العدد عدة مرات .

وقد وصف الله تعالى ذلك الوضع الشديد بقوله ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١٠، ١١] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥١ - ٤٥٣ .

وأخرجه الإمام مسلم بأخصر من هذا من حديث حذيفة رضي الله عنه - صحيح مسلم، كتاب الجهاد ، رقم ١٧٨٨ (٣/ ١٤١٤) - .

وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن حذيفة رضي الله عنه مختصرا وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٣١ - .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث حذيفة رضي الله عنه وذكر نحوه - سيرة ابن هشام٣/ ٢٧٩-٢٨٢ - .

وقوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني الأحزاب وقوله ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني بني قريظة كما في خبر حذيفة ، وقوله ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ تعبير بليغ عن شدة الخوف والفزع ، وقوله ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال الحسن البصري : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا ﷺ وأصحابه يُستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١) .

وفي مواجهة هذه الشدائد كان المؤمنون يسألون رسول الله ﷺ عما ينبغي لهم من الدعاء ، وفي ذلك يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : قلنا يوم الخندق : يارسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال : نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ، قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح (٢) .

ولقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الصادقين بقوله ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾ [الأحزاب : ٢٢ - ٢٤] .

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٣١-١٣٢ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٢ .

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمامين ابن أبي حاتم وأحمد بن حنبل - تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٢- .

وقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ يعني ما سبق من وعد الله تعالى بقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب [(١)] .

وقوله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قال مجاهد بن جبر : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ : عهده ، فقُتل أو عاش ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ يوما فيه جهاد فيقضي نحبه : عهده ، فيُقْتَل أو يصدق في لقائه[(٢)] .

وإن فيما جرى للأحزاب في تلك الليلة لعبرة للمعتبرين ، فقد أرسل الله تعالى عليهم جنوده من الملائكة عليهم السلام الذين زلزلوا أهل الأحزاب ، كما أرسل عليهم ريحا عاصفا اقتلعت خيامهم وأكفأت قدورهم ورمتهم بالحجارة ، حتى نادوا بالرحيل ، وقد ذكَّر الله تعالى المؤمنين بهذه النعمة العظيمة بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩] وبقوله ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٤٤ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٤ .

(٢) تفسير الطبري ٢١ / ١٤٥ .

فا لله تعالى هو الذي نصر رسوله ﷺ وعباده المؤمنين من غير قتال منهم فأجْلاَ الكفار عن المدينة بجنوده من الملائكة عليهم السلام والريح العاصف وردَّهم إلى بلادهم وهم في أوج غيظهم وحنقهم على المسلمين .

وأخيراً فإن في قول حذيفة عن رسول الله ﷺ « وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى » بيان لسنة من سُنن رسول الله ﷺ في مواجهة الشدائد حيث يلجأ إلى الصلاة ودعاء الله سبحانه أن يفرج ذلك الكرب الذي نزل .

وهذه هي سنة الأنبياء عليهم السلام كما جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد وفيه « وكانوا إذا فزعوا يفزعون إلى الصلاة » [1] .

* * *

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٣ .

٩ – نماذج من مواقف شعراء الصحابة –

رُويت لشعراء الصحابة رضي الله عنهم أشعار رائعة في غزوة الخندق، نقتطف أبياتا منها كنماذج لهذه الأشعار ، فمن ذلك قول كعب ابن مالك ، أخو بني سَلَمَة :

وسائلة تسائلُ ما لَقينا ... ولو شهدتْ رأتنا صابرينا
صَبَرْنا لانرى للّه عدْلا ... عَلَى ما نابنا مُتَوكِّلينا
وكان لنا النبيّ وزيرَ صدْق ... به نَعْلوا البريَّة أجمعينا
نُقاتل مَعْشرًا ظلَموا وعَقُّوا ... وكانوا بالعداوة مُرْصدينا
نُعاجلهم إذا نهضوا إلينا ... بضَرْب يُعجل المُتَسرِّعينا

إلى أن قال :

لنَنْصُر أحمدًا واللهَ ، حتى ... نكونَ عبادَ صدْق مُخلصينا
ويعْلم أهلُ مكَّة حين ساروا ... وأحْزَابٌ أتوْ امتَحزّبينا
بأنّ الله ليسَ لهُ شريكٌ ... وأنَّ الله مَوْلى المُؤمنينا
فإمَّا تَقْتلوا سَعدًا سفاها ... فإنَّ الله خيرُ القادرينا
سيدخله جنَانًا طَيِّبات ... تكون مقامةً للصَّالحينا
كما قد رَدَّكم فَلاّ شَريدًا ... بَغَيظكم خَزَايا خائبينا
خَزَايا لَمْ تَنالوا ثمَّ خيرًا ... وكدْتم أن تكونوا دامرينا

وقال كعب بن مالك أيضا في قصيدة له :

ومواعظٌ من ربِّنا نُهدْى بها ... بلسان أزْهر طَيِّب الأثواب

عُـرضتْ علينا فاشتهَيْنا ذكْـرَهـا　　من بعد ما عُرضَتْ على الأحزاب

حكَمًا يراها المُجْرِمون بزَعْمِهِـم　　حَـرجـًا ويَفهمها ذَوو الألْـبـاب

جاءت سَخينةُ[1] كي تُغالبَ ربَّها　　فـليُغْلَـبنَّ مُغـالِـبُ الغَـلاَّب

قال ابن هشام : حدثني من أثق به ، قال : حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، قال : لما قال كعب بن مالك :

جـاءت سَخينة كي تُغالب ربـها　　فليـغلَـبَنَّ مُغـالِـبُ الغَـلاَّب

قال لـه رسـول الله ﷺ : لـقد شكـرك الله ياكعْب على قولك هذا [2].

* * *

(١) أي قبيلة قريش ، لُقِّبوا بذلك لكثرة أكلهم السخينة وهي طعام يصنع من الدقيق واللحم ، وذلك لغناهم .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٣١٨ - ٣٢٦ .

مواقف وعبر

فى غزوة بنى قريظة

١- حصار بني قريظة -

أخرج الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: « لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريلُ عليه السلام فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرُج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: ها هنا. وأشار إلى قُريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم».

وأخرج من حديث أنس رضي الله عنه قال « كأني أنظرُ إلى الغُبار ساطعًا في زُقاق بني غَنْم، مَوكب جبريلَ حين سار رسولُ الله ﷺ إلى بني قريظة».

وأخرج من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: « قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: لايصلِّين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضُهُم العصر في الطريق فقال بعضهم: لانصلِّي حتى نأتَيهم، وقال بعضهم: بلى نصلي، لم يُردْ منا ذلك. فذُكر ذلك للنبيِّ ﷺ فلم يُعَنِّفْ واحداً منهم» (١).

وأخرجه ابن إسحاق، وفيه أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ « إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم» (٢).

وقال الحافظ ابن حجر: وكذلك أخرجه الطبراني والبيهقي في «الدلائل» بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن

---

(١) صحيح البخاري المغازي، رقم ٤١١٧ و ٤١١٨ و ٤١١٩ (٧/ ٤٠٧-٤٠٨).

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٢.

كعب بن مالك عن عمه عبيد الله بن كعب « أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب وجمع عليه اللأمة [1] واغتسل واستجمر تَبَدَّى له جبريل فقال : عَذيرك من مُحارَب [2] ، فوثب فزعا . فعزم على الناس أن لا يُصلُّوا العصر حتى يأتوا بني قريظة ، قال فلبس الناس السلاح فلم يأتوا قريظة حتى غربت الشمس ، قال فاختصموا عند غروب الشمس فصلَّتْ طائفة العصر وتركتها طائفة وقالت : أنا في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم ، فلم يُعنِّف واحدا من الفريقين ، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه موصولا ولم يذكر كعب بن مالك فيه [3] .

وقال الواقدي : سار إليهم النبي ﷺ يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة ، فحاصرهم خمسة عشر يوما ، ثم انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم [4] .

وقال الواقدي : فحدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن أُسَيد بن أبي أُسَيد ، عن أبي قتادة ، قال : انتهينا إليهم فلمّا رأونا أيقنوا بالشرّ ، وغرز عَليٌّ عليه السلام الراية عند أصل الحصْن ، فاستقبلونا في صَياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه . قال أبو قتادة : وسكتنا وقلنا : السيفُ بيننا وبينكم ! وطلع رسولُ الله ﷺ فلما رآه عَليٌّ عليه السلام رجع إلى رسول الله ﷺ ، وأمرني أن ألزم اللواءَ فلزمته ، وكره أن يسمع رسول الله ﷺ

---

(١) أي خلع لباس الحرب كالدرع والمغفر .

(٢) عذيرك أي هات من يعذرك في هذا الأمر .

(٣) فتح الباري ٧/ ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٩٦ .

أذاهم وشَتْمَهم ، فسار رسولُ الله ﷺ إليهم . وتقدّمه أُسيدُ بن حُضَير فقال : يا أعداءَ الله ، لانبرح حصْنكم حتى تموتوا جوعًا . إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جُحْر . قالوا : ياابنَ الحُضَير ، نحن مواليكم دون الخزرج! وخاروا [1] ، وقال : لاعَهْدَ بيني وبينكم ولا إلَّ [2] . ودَنا رسولُ الله ﷺ منهم ، وترّسنا عنه ، فقال : يا إخوةَ القرَدَة والخنازير وعَبَدَة الطَّواغيت، أتشتمونني ؟ قال : فجعلوا يحلفون بالتَّوراة التي أنزلت على موسى : ما فعلنا ! ويقولون : يا أبا القاسم ، ما كنتَ جَهُولاً ! ثم قدَّم رسول الله ﷺ الرُّماةَ من أصحابه .

قال : فحدثني فَروة بن زُبَيد ، عن عائشة بنت سعد ، عن أبيها ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : ياسعد ، تقدَّمْ فارْمهم ! فتقدّمتُ حيث تَبلُغهم نَبْلي ، ومعي نَيِّفٌ على الخمسين ، فرميناهم ساعةً وكأنّ نبلنا رجْلَ جراد ، فانجحروا فلم يطلع منهم أحد . وأشفقنا على نبلنا أن يذهب ، فجعلنا نرمي بعضها ونُمسك البعض . فكان كعب بن عمرو المازنيّ - وكان راميًا - يقول : رميتُ يومئذ بما في كنانتي ، حتى أمسكنا عنهم بعد أن ذهبت ساعةٌ من الليل . قال : وقد رمونا ورسولُ الله ﷺ واقفٌ على فرسه عليه السلاح ، وأصحاب الخيل حوله ، ثم أمرنا رسول الله ﷺ فانصرفنا إلى منزلنا وعسكرنا فبتْنا ، وكان طعامنا تمرًا بعث به سعد بن عُبادة ، أحمال تمر ، فبتنا نأكل منها ، ولقد رُئي رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمر يأكلون من ذلك التمر ، ورسول الله ﷺ يقول : نعْمَ الطعامُ التمرُ ! واجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاءً ، فمنهم من

---

(١) أي ضعفوا .

(٢) الإلّ بكسر الهمزة الحلف .

لم يُصَلِّ حتى جاءَ بني قُريظة ، ومنهم من قد صلَّى ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فما عاب على أحد صلَّى ، ولا على أحد لم يُصَلِّ حتى بلغ بني قُرَيْظَة . ثم غدونا عليهم بسُحْرَة ، فقدّم رسول الله ﷺ الرُّماة ، وعبّأ أصحابه فأحاطوا بحُصونهم من كل ناحية ، فجعل المسلمون يُرامونهم بالنبل والحجارة ، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضُهم بعضًا ، فما برح رسول الله ﷺ يُراميهم حتى أيقنوا بالهلكة .

قال : فحدثني الضَّحّاك بن عثمان ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : كانوا يراموننا من حُصونهم بالنبل والحجارة أشدَّ الرَّمْي ، وكنا نقوم حيث تبلغهم نبلُنا .

قال : فحدثني الضَّحّاك بن عثمان ، عن جعفر بن محمود ، قال : قال محمد بن مسْلَمَة : حَصرناهم أشدَّ الحصار ، فلقد رأيتنا يوم غدونا عليهم قبل الفجر ، فجعلنا ندنو من الحصْن ونرميهم من كَثَب . ولزمنا حصونهم فلم نُفارقها حتى أمسينا ، وحَضَّنا رسولُ الله ﷺ على الجهاد والصبر . ثم بتنا على حصونهم ، ما رجعنا إلى معسكرنا حتى تركوا قتالنا وأمسكوا عنه وقالوا : نُكلّمك . فقال رسول الله ﷺ : نعم . فأنزلوا نَبّاش بن قيس ، فكلّم رسولَ الله ﷺ ساعةً وقال : يامحمد ، ننزل على ما نزلتْ عليه بنو النَّضير ، لك الأموال والحَلْقَةُ وتَحْقن دماءَنا ، ونخرج من بلادكم بالنساء والذَّراريّ ، ولنا ماحملت الإبلُ إلا الحَلْقَة . فأبى رسول الله ﷺ ، فقالوا : : فتحقن دماءَنا وتُسلم لنا النساءَ والذُّرية، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل . فقال رسول الله ﷺ : لا ، إلا أن تنزلوا على حكمي .

فرجع نَبّاش إلى أصحابه بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال كعب بن أَسَد : يامعشر بني قُريظة ، والله إنكم لتعلمون أنَّ محمدًا نبيُّ الله ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحَسَدُ للعرب ، حيث لم يكن نبيًا من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله . ولقد كنت كارهًا لنقض العَهْد والعَقْد . ولكن البلاء وشؤم هذا الجالس [1] علينا وعلى قومه ، وقومُه كانوا أسوأ منَّا ، لايستبقي محمدٌ رجلاً واحدًا إلا من تبعه ، أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم فقال : تركتُ الخَمْرَ والخمير والتأمير ، وجئتُ إلى السِّقاء والتمر والشعير ؟ قالوا : وماذلك ؟ قال : يخرج من هذه القرية نبي فإن خرج وأنا حي اتبعته ونصرته ، وإن خرج بَعْدُ فإياكم أن تُخدعوا عنه ، فاتَّبعوه وكونوا أنصاره وأولياءَه ، وقد آمنتم بالكتابين كليهما الأول والآخر .

قال كعب : فتعالوا فلنُتابعْه ولنُصدقه ولنُؤمن به ، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا ، فنكون بمنزلة من معه ، قالوا : لانكون تَبَعًا لغيرنا ، نحن أهل الكتاب والنُّبوة ، ونكون تبعًا لغيرنا؟ فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم . قالوا : لانُفارق التوراة ولانَدَعُ ما كنَّا عليه من أمر موسى ، قال : فهلمّ فلنقتلْ أبناءَنا ونساءَنا ، ثم نخرج في أيدينا السيوفُ إلى محمد وأصحابه ، فإن قُتلنا قُتلنا وما وراءَنا أمرٌ نهتمّ به . وإن ظفرنا فلَعَمري لنتخذن النساء والأبناء ، فتضاحك حُيَي بن أخطب ثم قال : ماذَنْبُ هؤلاء المساكين ؟ وقالت رؤساء اليهود ، الزَّبير بن باطا وذووه : ما في العيش خيرٌ بعد هؤلاء . قال : فواحدةٌ قد بقيَتْ من

---

(١) يعني حيي بن أخطب .

الرأي لم يَبْقَ غيرُها ، فإن لم تقبلوها فأنتم بنو أُسْتِها . قالوا : ماهي؟ قال الليلة السبت ، وبالحَريّ أن يكون محمدٌ وأصحابه آمنين لنا فيها أن نُقاتله، فنخرج فلعلنا أن نُصيب منه غرَّة . قالوا : نُفسد سبتنا ، وقد عرفت ما أصابنا فيه ؟ .

قال حُيَيّ : قد دعوتُك إلى هذا وقُرَيشٌ وغَطَفان حُضورٌ فأبيتَ أن تكسر السبت ، فإن أطاعتني اليهود فعلوا . فصاحت اليهود : لانكسر السبت . قال نَبّاش بن قَيس : وكيف نُصيب منهم غرَّة وأنت ترى أنَّ أمرهم كلَّ يوم يشتدّ . كانوا أوّلَ ما يُحاصروننا إنما يُقاتلون بالنهار ويرجعون الليل ، فكان هذا لك قولاً « لو بيّتناهم» . فهم الآن يُبَيِّتون الليل ويَظلُّون النهار ، فأيّ غرَّة نُصيب منهم ؟ هي مَلْحَمة وبلاء كُتب علينا، فاختلفوا وسُقط في أيديهم ، وندموا على ما صنعوا ، ورَقُّوا على النساء والصبيان ، وذلك أنَّ النساء والصبيان لَمَّا رأوا ضَعْفَ أنفسهم هلكوا، فبكى النساء والصبيان ، فرَقُّوا عليهم (١) .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولاً : فيه مثال لحرص الصحابة رضي الله عنهم على طاعة أمر رسول الله ﷺ ، فحينما قال : لايصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة امتثلوا أمره إلى حد أن بعضهم حينما تأخر مضطرًا أخر صلاة العصر حتى وصل إلى بني قريظة تنفيذا لظاهر أمر النبي ﷺ .

ثانيًا : موقف في البراءة من الكفار لأُسيْد بن حضير رضي الله عنه،

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٣ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٦ .

وذلك حينما هدد بني قريظة ، وقوله حينما ذكَّروه بولائهم لقومه الأوس : لاعهد بيني وبينكم ولا إلٌّ ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه لأن التخلص من أحلاف الجاهلية ليس بالأمر اليسير إلا على من يسَّره الله عليه .

ثالثًا : موقف يذكر لسعد بن عبادة رضي الله عنه حيث موَّن الجيش الإسلامي بالطعام وذلك من التمر فكانت تُحمل أحمال التمر إلى معسكر المسلمين ، وقد كان سعد مشهورا بالكرم الفياض .

رابعًا : في محاورة كعب بن أسد زعيم بني قريظة لقومه عبرة بالغة ، حيث اعترف أمامهم بصدق رسالة رسول الله ﷺ وأنه النبي المنتظر الذي أمرهم أنبياؤهم عليهم السلام بالإيمان به ، والاعتراف بأن الذي منعهم من الإيمان به الحسد للعرب ، فحينما وقع قومه بذلك المصير المشئوم وأيقنوا بالهلاك أشار على قومه بالإيمان به وذكَّرهم بوصايا علمائهم السابقين حول الإيمان به إذا ظهر ، لكن رؤساءهم امتنعوا من الدخول في الإسلام تكبُّرا عن أن يكونوا تابعين لغيرهم .

وقد ذكر الواقدي في رواية له أن رسول الله ﷺ حينما قُدِّم كعب بن أسد للقتل قال له : كعبُ بن أسد ؟ [1] قال كعب : نعم يا أبا القاسم، قال : وما انتفعتم بنصح ابن خراش ، وكان مصدقا بي : أمَا أمركم باتباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام ؟ قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا أن تعيِّرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك ولكني على دين اليهود [2] .

---

(١) يعني هل أنت كعب بن أسد ؟

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥١٦ .

وكذلك ما جرى من ابني سَعْيَةَ وعمهم حينما حاوروا قومهم من يهود بني قريظة فلم يطيعوهم وأسلم هؤلاء الثلاثة كما جاء في رواية للواقدي قال : فحدثني صالح بن جعفر ، عن محمد بن عُقبة ، عن ثَعلبة بن أبي مالك ، قال : قال ثعلبة وأُسيد ابنا سَعية ، وأسد بن عُبيد عمهم : يامعشر بني قُريظة ، والله إنكم لَتعلمون أنه رسول الله وأنَّ صفته عندنا ، وحدّثنا بها علماؤنا وعلماء بني النَّضير . هذا أوّلهم - يعني حُيَي بن أخْطَب - مع جُبير بن الهَيِّبان أصدق الناس عندنا ، هو خبَّرنا بصفته عند موته .

قالوا : لانُفارق التوراة ! فلما رأى هؤلاء النفر إباءَهم ، نزلوا في الليلة التي في صُبْحها نزلت قُريظة ، فأسلموا فأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم [1] .

فهذه الأخبار وأمثالها تثبت أن اليهود كانوا يعلمون أن محمداً ﷺ رسول من عند الله تعالى وأنهم مأمورون بالإيمان به واتباعه ، ولكنهم اتبعوا أهواءهم المنحرفة حسداً للعرب أن كان منهم .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٥٠٣ .

٢ – مثل من الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح

(أبو لبابة وإفشاء السر الحربي)

قال ابن إسحاق : ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ، أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حُلفاء الأوس لنَسْتشيره في أمرنا ، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجَهَشَ إليه النساء والصبيان يبْكون في وجهه ، فرقّ لهم ، وقالوا يا أبا لبابة ! أتَرى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، إنه الذبح قال أبو لبابة : فو الله مازالت قدماي من مكانهما حتى عرفتُ أني قد خُنْتُ الله ورسوله ﷺ ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي ممّا صنعت ، وعاهد الله : أن لا أطأ بني قريظة أبدًا ، ولا أُرى في بلد خُنْت الله ورسوله فيه أبدًا .

قال ابن هشام : وأنزل الله تعالى في أبي لبابة – فيما قال سُفيان بن عُيينة ، عن لفظ إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [**الأنفال** : ٢٧] .

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسولَ الله ﷺ خبرُهُ ، وكان قد استبطأه، قال : أما إنه لو كان جاءني لأستغفرت له ، فأما إذ قد فعل مافعل فما أنا بالذي مطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن عبد الله بن قُسَيط أن توبة أبي

لُبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو في بيت أمّ سلمة . فقالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك . قالت فقلت : ممَّ تضحك يارسول الله أضحك الله سنَّك ، قال : تيْبَ على أبي لُبابة ، قالت : قلت : أفلا أبَشِّره يارسول الله ؟ قال : بلى ، إن شئت . قال : فقامت على باب حُجْرتها ، وذلك قبل أن يُضرب عليهنَّ الحجاب فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك قالت : فثار الناس إليه ليطلقوه فقال : لا والله حتى يكون رسولُ الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده ، فلما مرّ عليه رسولُ الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

قال ابن هشام : أقام أبو لُبابة مرتبطا بالجذع ستَّ ليال ، تأتيه امرأته في كلّ وقت صلاة ، فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرْتبط بالجذع ، فيما حدثني بعض أهل العلم ، والآية التي نزلت في توبته قولُ الله عز وجل : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٢] (١) .

قال الواقدي : وحدثني مَعْمر ، عن الزُّهريّ ، عن ابن كعب بن مالك ، قال : جاء أبو لُبابة إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أهجرُ دار قومي التي أصبتُ فيها هذا الذنب ، وأخْرُج من مالي صدقةً إلى الله ورسوله . فقال النبي ﷺ : يجزئ عنك الثُّلُث . فأخرج الثُّلُث ، وهجر أبو لُبابة دار قومه . ثم تاب الله عليه ، فلم يَبِنْ في الإسلام منه إلا خيرٌ حتى فارق الدنيا (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٩ .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥٠٩ .

في هذا الخبر موقف جليل لأبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح ، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى بها سرا حربيا خطيرا ، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات ، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين ، وأن يستكتم اليهود أمره، وسيفعلون ذلك لما بينهم وبينه من صلات سابقة ، ولأنه قدَّم لهم خدمة كبيرة بإفشاء هذا السر ، ومنْ صالحهم أن يكتم هذا الخبر، ولكنه رضي الله عنه تذكَّر حالاً رقابة الله عز وجل عليه وعلمه بما يُسرُّ ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر ، ففزع لهذه الزلة فزعا عظيما جعله يحكم على نفسه بخيانة الله تعالى ورسوله ﷺ ، وينطلق إلى مسجد رسول الله ﷺ ليحبس نفسه فيه حتى يتوب الله عليه .

إننا حينما نتصور هذا الخلق الرفيع ونقارنه بما عليه سلوك كثير من أبناء المسلمين اليوم نجد الفرق شاسعا بين مجتمع الصحابة ومجتمع المسلمين في العصر الحاضر ، حيث بلغ الرقي الأخلاقي في العهد النبوي أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه البشر .

وكون أبي لبابة زلَّ وأخطأ لايجرح من مكانته العالية ما دام يملك ضميرا يقظا وعقلا حاكما يحكم على تصرفاته فيقَوِّمَها نحو الأفضل، وقد حكم على نفسه بالخيانة وعاقبها بالحبس من غير أن يحكم عليه أحد بذلك ، لأن المطلب الكبير الذي يشغل باله أن تكون صحيفته بيضاء أمام

الله تعالى ، ولن تكون كذلك إلا بالاعتراف بالخطأ والتوبة النصوح .

وهكذا رأينا في هذا الخبر مثلا من الأمثلة العالية التي يتفوق فيها الإيمان الذي يكون من الرسوخ في القلب بحيث يكون حاكما على سلوك الإنسان في هذه الحياة ، ولئن كان هذا الشعور الإيماني المسيطر على السلوك قد تخلله لحظات من الضعف البشري لدى أبي لبابة فلم يُحْكِمْ تصرفاته بسبب دهشته مما رأى فإنه سرعان ما عاد إليه إدراكه وقوي إيمانه بحيث أقدم على الحكم على نفسه بالخيانة وعاقب نفسه بالعقوبة المذكورة .

وإن السعادة الروحية التي ظفر بها حينما تاب الله تعالى عليه لايعادلها أي سعادة دنيوية ، لأنها محت من نفسه آثار الشعور بالذنب ، وكان من نتائج فرحته بهذه التوبة أن استأذن النبي ﷺ في أن يتصدق بما له كله ، فقال له : يجزئ عنك الثلث ، كما أنه هجر ذلك المكان الذي عصى الله تعالى فيه .

وأخيرا موقف عظيم لرسول الله ﷺ في العفو والرحمة وغضّ النظر عن زلات الكرام ، فمع هذه الزلة الكبيرة التي وقع فيها أبو لبابة ، والتي من شأنها أن تغيِّر مجرى المعركة ، وأن ترهق الجيش الإسلامي فإن النبي ﷺ لم يأمر بحضوره إلى المحاكمة ، ولم يحكم عليه بشيء لعلمه بسلامة مقصده وحبه لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وأن الذي جرى منه إنما كان زلة من لسانه .

* * *

٣ - مثل من الجرأة في قول الحق -
(سعد بن معاذ يحكم في بني قريظة)

قال ابن إسحاق : فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس ، فقالوا : يارسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، قد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت - وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكانوا حُلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، فوهبهم له - فلما كلَّمَتْه الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسولُ الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رُفيدة ، في مسجده ، كانت تداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيْعَة من المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعُوده من قريب .

فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قُريظة ، أتاه قومُه فحَملوه على حمار قد وطَّئوا له بوسادة من أدَم [١] ، وكان رجلا جسيما جميلا ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ ، وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحسنْ في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتُحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد أنَى [٢] لسعد أن لاتأخذه في الله لومةُ لائم .

---

(١) يعني من جلد .

(٢) أنَى أي قرب وهي بمعنى آن ، وفي رواية الواقدي « آن » .

فرجع بعضُ من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال بني قُريظة ، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التي سمع منه .

فلما انتهى سعدٌ إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، قال رسولُ الله ﷺ قوموا إلى سيدكم - فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسولُ الله ﷺ الأنصار ، وأما الأنصار فيقولون : قد عمّ بها رسولُ الله ﷺ - فقاموا إليه ، فقالوا : ياأبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمرَ مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه ، أنّ الحكم لما حكمتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى مَنْ هاهنا ؟ في الناحية التي فيها رسولُ الله ﷺ ، وهو مُعرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له ، فقال رسولُ الله ﷺ : نعم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجالُ ، وتقسم الأموال ، وتُسْبى الذراري والنساء .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ ، عن علقمة بن وقاص الليثي ، قال : قال رسولُ الله ﷺ لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعةأرْقعة (١)(٢) .

---

(١) أي سبع سماوات .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩١ - ٢٩٣ .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث عن غزوة الخندق وبني قريظة - الفتح الرباني ٢١/ ٨١ - ٨٣ - وقد سبق تخريجه في ص ١٣٨ .

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٢١و٤١٢٢(٧/ ٤١١) .

قال ابن إسحاق : ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث ، امرأة من بني النجار ، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة ، التي هي سوقها اليوم ، فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يُخرَج بهم إليه أرْسالا [1]، وفيهم عدوّ الله حُيي بن أخطب ، وكعب بن أسد ، رأس القوم ، وهم ست مئة أو سبع مئة [2] .

في هذا الخبر تصوير لقوة الأحلاف الجاهلية وأثرها على النفوس ، حيث لم يتخلص منها إلا أقوياء الإيمان ، وما جرى في هذا الخبر من قول الأوس « يارسول الله إنهم موالينا دون الخزرج » محمول على أنه صدر من بعضهم إذ أنه يَبْعُد أن يصدر من كبارهم المشهورين بقوة الإيمان .

وكان مما يغذّي وجود هذه العصبية والتمسك بالأحلاف الجاهلية وجود عدد من المنافقين في مجتمع الأنصار ، حيث إن المنافقين هم من الأوس والخزرج .

وكان النبي ﷺ يعاني كثيرا من هذه النظرة المتأصلة لدى بعضهم ، ولكنه كان يداريها بسياسته الحكيمة حتى استطاع أن يتلافى أخطارها المدمرة .

ومن هذا الموقف الحرج استطاع النبي ﷺ أن يخرج من هذا المأزق بتحكيم رجل من الأوس لأنه إذا حكم بما يُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ

---

(١) أي متتابعين .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩١ - ٢٩٣ .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٢/ ٥١٠-٥١٤ - .

لن يستطيع المنافقون أن يُرجفوا ولا أن يحدثوا فتنة في مجتمع الأوس ، بينما موقف النبي ﷺ محرج فيما لو حكم على يهود بني قريظة بالقتل لكونه قبل ذلك قد منَّ على حلفاء الخزرج من يهود بني قينقاع ، فستكون القضية مرتعا خصبا للمنافقين ليقوموا بإرجافهم .

ولقد اختار النبي ﷺ رجلا منهم يعلم أن لديه من قوة الإيمان ورسوخ اليقين ما يكفي لإنقاذ الموقف ، وذلك بتنفيذ ما كان عزم عليه في الحكم بقتل اليهود مع تلافي الحساسية التي لدى بعض الأوس فيما لو حكم فيهم النبي ﷺ .

ولقد واجه سعد بن معاذ رضي الله عنه حرجًا كبيراً من بعض قومه ، وتعرض لضغوط شديدة من بعضهم حيث أتوا إليه ورافقوه في الطريق من المسجد النبوي إلى بني قريظة وحاولوا إقناعه في تخفيف الحكم لاعفائهم من القتل ، فلما أكثروا عليه قال كلمته العظيمة « لقد آن لسعد أن لاتأخذه في الله لومة لائم » فطبق بذلك المبدأ الإسلامي العالي الذي لاينظر فيه المسلم إلى أي هدف سوى إعلاء كلمة الله تعالى وابتغاء مرضاته .

ولما وصل إلى الميدان وحكَّمه الرسول ﷺ في بني قريظة حكم بقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم وتقسيم أموالهم ، فأثنى عليه النبي ﷺ ببيان أن حكمه وافق حكم الله تعالى .

وهكذا كان هذا الموقف العظيم من أبي عمرو سعد بن معاذ رضي الله عنه حيث حكم بالحق وإن كان ذلك يغضب بعض قومه وجميع حلفائه من اليهود ، وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى ، حيث لم يَتَسَرَّب إليه اعتبار القوى البشرية ، وأصبح المتحكِّم في سلوكه هو اعتبار

رضَى الله عز وجل وحده وإن أغضب حلفاءه والمخالفين له من قومه ، وهذا علامة على كمال التوحيد .

إن كثيرا من المسلمين يستطيعون أن يؤدوا تكاليف الإسلام التي لاتحرجهم مع الناس ولكنهم يخضعون أحيانا لبعض الناس في أمور لايرضاها الله عز وجل ، أما المصطَفَوْن الأخيار فإنهم لايفرقون بين تكاليف الدين ، ولايُلقون بالاً لمواجهة المخالفين والتعرض لسخطهم مادامو قد استقاموا على الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ومن أجل هذا الموقف العظيم وأمثاله لسعد بن معاذ أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيرا أمام الصحابة ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به ، فمن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » (١) .

وجاء في رواية ابن إسحاق « أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ حين قُبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال : يامحمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ قال : فقام رسول الله ﷺ سريعا يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات » (٢) .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب رضي

(١) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٤٦٦ (ص ١٩١٥) .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣١٠ .

الله عنه قال : « أهديَتْ لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها ، فقال : أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين» [1] .

وقد كان هذا بعد موت سعد بأربع سنوات كما جاء في رواية ابن إسحاق أن هذا كان في غزوة تبوك التي كانت في العام التاسع [2] .

وهكذا كانت نهاية غدر اليهود بالمسلمين أن لقوا نفس المصير الذي كانوا يريدونه لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، فقد تحالفوا مع الأحزاب وكان من تخطيطهم أن يهجموا على المسلمين من خلفهم من الداخل وأن يهجم الأحزاب على المسلمين من أمامهم ، ولو فعلوا ذلك لشغلوا المسلمين عن حراسة الخندق ولربما استطاع فرسان الأحزاب أن يقتحموا الخندق ولكن الله تعالى ملأ قلوب اليهود رعبا وفزعا فلم يستطيعوا أن يجاوزوا حصونهم حتى هزم الله تعالى الأحزاب فعادت الدائرة على اليهود الخائنين .

ولقد وفى من يهود بني قريظة عمرو بن سُعْدَى الذي أبى أن يدخل معهم في نقض العهد وذكّرهم بما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من حلف ثم نجّاه الله بصدقه ووفائه ، وفي خبره يقول الواقدي : فحدثني الضحاك بن عثمان ، عن محمد بن يحيى بن حيّان ، قال عمرو بن سُعْدَى ، وهو رجلٌ منهم : يامعشر اليهود ، إنكم قد حالفتم محمّداً على ما حالفتموه عليه ، ألاّ تنصروا عليه أحداً من عدوّه ، وأن تنصروه ممّن دهمه ، فنقضتم ذلك العهد الذي كان بينكم وبينه ، فلم أدخل فيه

(١) صحيح مسلم فضائل الصحابة ، رقم ٢٤٦٨ (ص ١٩١٦) .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٦ .

ولم أشركْكم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية ، فو الله ما أدري يقبلها أم لا ؟ قالوا : نحن لانُقرّ للعرب بخَرْج في رقابنا يأخذوننا به ، القتلُ خير من ذلك ! قال : فإني بريءٌ منكم .

وخرج في تلك الليلة مع بني سَعْيَة فمرَّ بحرس النبي ﷺ وعليهم محمد بن مَسْلَمة ، فقال محمدّ بن مَسْلَمة : من هذا ؟ فقال : عمرو بن سُعْدى . فقال محمد : مُرّ ! اللهم ، لاتحرمني إقالة عَثَرات الكرام . فخلّى سبيلَه وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح . فلمّا أصبح غدا فلم يُدْرَ أين هو حتى الساعة ، فسُئل رسول الله ﷺ عنه فقال : ذلك رجلٌ نجّاه اللهُ بوفائه [(١)] .

هذا الخبر يثبت العهد الذي قطعه اليهود على أنفسهم من وجوب نصرة المسلمين إذا دهمهم عدو من خارج المدينة ، و أن لايناصروا أعداء المسلمين ، وتأتي قيمة هذا الخبر من كون هذا الاعتراف صادرًا من أحد اليهود وإقرار اليهود لذلك ، وإلا فإن هذا العهد قد ثبت في نصوص أخرى كما تقدم لنا في خبر المعاهدة التي تمت بين رسول الله ﷺ ويهود المدينة .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٥٠٣ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكره نحوه ٣/ ٢٩٠ .

مواقف وعبر
ما بين بنى قريظة
إلى نهاية الحديبية

١ – مغامرة فدائية –
(قتل ابن أبي الحُقَيق اليهودي)

قدَّم الإمام ابن إسحاق لهذا الخبر بمقدمة تشتمل على الثناء على الأنصار رضي الله عنهم فقد روى بإسناده عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين – يعني يتسابقان في خدمته – لايصنع الأوس شيئا فيه عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج : والله لاتذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام ، قال : فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك .

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج : والله لاتذهبون بها فضلا علينا أبدا .

قال : فتذاكروا مَنْ رجل لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله فأذن لهم[١] .

ومن هذا النص ندرك نموذجا من الأهداف السامية والمقاصد العالية التي كانت تحكم حياة الصحابة رضي الله عنهم وتوجِّه سلوكهم ، فهم لايتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب ، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي ﷺ التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٤٨

وإنما اختاروا ابن أبي الحقيق لأنه كان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين على المسلمين كما جاء في رواية للإمام البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه »[1] .

وقال الحافظ ابن حجر : ذكر ابن عائذ من طريق أبي الأسود عن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ[2] .

وفي بيان أحداث هذه السرية أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع عبد الله بن عتيك وعبد الله بن عتبة في ناس معهم ، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن ، فقال لهم عبد الله بن عتيك : امكثوا أنتم حتى انطلق أنا فأنظر ، قال : فتلطفت أن أدخل الحصن ، ففقدوا حمارا لهم ، قال : فخرجوا بقَبس يطلبونه ، قال : فخشيت أن أُعرف ، قال : فغطيت رأسي كأني أقضي حاجة .

ثم نادى صاحب الباب : من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن ، فتعشَّوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل ، ثم رجعوا إلى بيوتهم ، فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة خرجت ، قال : ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كُوَّة ، فأخذته ففتحت به باب الحصن ، قال قلت : إن نَذر بي القوم انطلقت على مهل .

---

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٣٩ (٧/ ٣٤٠)

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٤٣

ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهر ، ثم صعدت إلى أبي رافع في سُلَّم ، فإذا البيت مظلم قد طفئ سراجه فلم أدْر أين الرجل، فقلت : يا أبا رافع ، قال : من هذا ؟ قال : فقصدت نحو الصوت فأضربه وصاح فلم تغن شيئًا . قال : ثم جئت كأني أغيثه فقلت مالك يا أبا رافع ؟ وغيَّرت صوتي ، فقال : ألا أعجَبَك لأمك الويل! دخل عليَّ رجل فضربني بالسيف قال : فعمَدْت له أيضا فأضربه أخرى فلم تغن شيئا ، فصاح وقام أهله قال : ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث ، فإذا هو مستلق على ظهره فأضع السيف في بطنه ثم أنكفئ حتى سمعت صوت العظم .

ثم خرجت دهشا حتى أتيت السلَّم أريد أن أنزل فأسقُط منه ، فانخلعت رجلي فعصبتها ، ثم أتيت أصحابي أحجُل ، فقلت : انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية ، فلما كان في وجه الصبح صعد الناعية ، فقال : أنعي أبا رافع ، فقمت أمشي ما بي قَلَبة - أي علة أنقلب بها - فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ فبشرته [1] .

وهكذا رأينا هذا الفاتك البطل عبد الله بن عتيك رضي الله عنه قام بهذه المهمة الشاقة وحده ، وتعرض لمخاطر كثيرة استطاع أن يجتازها حتى بعد أن أصيب في ساقه .

ولقد كان بارعا في استخفائه ، دقيقا في تنكره حتى خفي أمره على البواب المسئول عن حماية الحصن ودخل كأي واحد من المقيمين داخله .

---

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٤٠(٧/ ٣٤١)

كما كان بارعا في تخطيطه للهجوم حيث أقفل الأبواب من ظاهرها ليتمكن من أداء مهمته قبل أن يصلوا إليه ، وأحسن التصرف حينما خفي عليه شخص من يريد الإيقاع به لشدة الظلام فناداه ليعرف مكانه من صوته ، ثم أحسن التصرف مرة أخرى حينما لم يستطع الإجهاز عليه في الضربة الأولى حيث غير صوته وناداه على هيئة من يريد إغاثته حتى تمكن منه .

كما كان بارعا في تخطيطه للفرار فيما إذا علم به عدوه حيث فتح باب الحصن ليسهل عليه التخلص منهم .

فأي قلب يحمله هذا الرجل الشجاع ؟ وما أبلغ حذره وتدبيره للأمور وهو مُقْدم على أداء مهمته ! .

ثم بعد أن أنهى هذه المهمة لم يرض بما وصل إليه حتى يتأكد من نجاحها ، وذلك بسماع نعي الرجل من قومه حسب المعتاد في حياتهم ، وهذا منتهى الإخلاص والطاعة .

وبعد : فمن هو عبد الله بن عتيك ؟ إنه فرد واحد من أفراد الجماعة التي رباها رسول الله ﷺ على مكارم الأخلاق فأحسن تربيتها ، فانطلق أفرادها يبذلون كل طاقتهم في الإصلاح في الأرض وتطهيرها من المفسدين .

وفي هذه القصة نلاحظ عناية الله جل وعلا بأوليائه المؤمنين ، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أصيبت رجله ، وكأنه لايشكو من علة حتى إذا انتهت مهمته تماما وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم ، وحمله أصحابه كما جاء

في رواية ابن إسحاق . فلما حدَّث النبي ﷺ خبره قال له كما جاء في إحدى روايات الإمام البخاري : « ابسط رجلك ، قال فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم اشتكها قط »[1] .

ويحسن بنا أن نختم الكلام على هذا الخبر ببيان الفوائد التي استخرجها الحافظ ابن حجر من هذا الحديث حيث يقول : وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر ، وقتلُ من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه ، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلُّب غرَّتهم ، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين ، وجواز إبهام القول للمصلحة ، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين ، والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته والله أعلم[2] .

* * *

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٣٩(٧/ ٣٤٠) .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٤٥ .

٢ – مواقف في سرية دومة الجندل –

قال الواقدي : حدثني سعيد بن مسلم بن قَمّادين ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عمر ، قال : دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عَوف فقال : تجهّزْ فإني باعثك في سرية من يومك هذا ، أو من غد إن شاء الله . قال ابن عمر : فسمعتُ ذلك فقلت : لأدخلنَّ فلأُصلّين مع النبي الغداة ، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف .

قال : فغدوتُ فصلّيت فإذا أبو بكر وعمر ، وناس من المهاجرين ، فيهم عبد الرحمن بن عوف ، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دُومة الجَنْدل فيدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن : ماخلّفك عن أصحابك ؟ قال ابن عمر : وقد مضى أصحابُه في السحَر ، فهم مُعسكرون بالجُرْف وكانوا سبعمائة رجل ، فقال : أحببتُ يارسول الله أن يكون آخر عهدي بك ، وعلي ثيابُ سفري .

قال : وعلى عبد الرحمن ابن عَوف عمامةٌ قد لفَّها على رأسه . قال ابن عمر : فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده ، ثم عممه بعمامة سوداءَ ، فأرخى بين كتفيْه منها ، ثم قال : هكذا فاعتمّ ياابن عوف ! قال : وعلى ابن عوف السيف مُتوشّحه . ثم قال رسول الله ﷺ : أغْزُ باسم الله وفي سبيل الله فقاتلْ مَن كفر بالله ، لاتَغُلَّ ولاتغدر ولاتقتل وليداً . قال ابن عمر : ثم بسط يده ، فقال : ياأيها الناس ، اتقوا خمساً قبل أن يُحلّ بكم : ما نُقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسِّنين ونَقْص من الثَّمَرات لعلّهم يرجعون ، وما نكث قومٌ عهدهم

إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وما منع قومٌ الزَّكاة إلا أمسك الله عليهم قطرَ السماء ، ولولا البهائمُ لم يُسقوا ، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلَّط الله عليهم الطاعون ، وما حكم قومٌ بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيَعًا ، وأذاق بعضهم بأس بعض [1] .

قال : فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دُومة الجندَل ، فلما حلّ بها دعاهم إلى الإسلام ، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أول ما قدم يُعطونه إلا السيف ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصْبَغ بن عمرو الكَلبي ، وكان نصرانيًا وكان رأسهم . فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يُخبره بذلك ، وبعث رجلاً من جُهَينة يقال له رافع بن مَكيث ، وكتب يُخبر النبي ﷺ أنه قد أراد أن يتزوَّج فيهم ، فكتب إليه النبي ﷺ أن يتزوّج بنت الأصْبَغ تُماضر . فتزوجها عبد الرحمن وبَنى بها ، ثم أقبل بها ، وهي أمّ أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن بن عوف .

وذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة ست [2] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : تواضع النبي ﷺ لأصحابه وشفقته عليهم ، حيث ألبس

---

(١) هذا الجزء من الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن رقم ٤٠١٩ (٢/ ١٣٣٢) من طريق عطاء بن رباح عن ابن عمر رضي الله عنهما وذكر نحوه .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥٦٠ - ٥٦١

وأخرجه ابن إسحاق من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر رضي الله عنهما وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٤٠٢ -

عبد الرحمن بن عوف عمامته بيده ، وهذا التواضع منه ﷺ يرفع من معنوية الصحابة رضي الله عنهم ، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطاقة في سبيل خدمة هذا الدين ، لأن التلاحم والمودة بين القائد وجنوده من أهم عوامل نجاح العمل وتحقيق الأهداف .

ثانيًا : في وصية رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف بيان لبعض مقاصد الجهاد وأحكامه ، فالجهاد يكون باسم الله تعالى لا بأسماء رموز الجاهلية ، ويكون في سبيل الله جل وعلا إعلاء لدينه ، لا في سبيل القوم والوطن والمصالح الدنيوية .

فأهل الجاهلية كانوا يقاتلون باسم أصنامهم وفي سبيل إعلاء شأن قبائلهم وأوطانهم ، فلما جاء الإسلام رفع من مستوى المسلمين الفكري فهجروا رموز الجاهلية ونطقوا باسم الله تعالى وحده ، وأصبح القوم الذين يعتزُّون بهم وينتصرون لهم هم المسلمين في كل مكان .

ثم نهى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف عن الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ، ونهاه عن الغدر في العهود وعن قتل الولدان ، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي في الجهاد ، فالقتال نوع من العنف والقسوة ، ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين طهر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ والحسد أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وحماية المحقين من المبطلين ، وليس متأصِّلاً في نفوسهم ، ولذلك كان محفوفا بالآداب السامية التي تجعل الإنسان الواحد جامعا بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف .

ثم وجَّه النبي ﷺ الكلام لعموم الحاضرين عنده وحذرهم من الفتن

الكبيرة التي تترتب على المعاصي الظاهرة ، فبيَّن لهم أن التطفيف في المكاييل والموازين يؤدي إلى القحط والجدب ونقص الثمرات ، وأن نقض العهود وعدم الوفاء بها يؤدي إلى تسلط الأعداء على المسلمين ، وأن منع الزكاة يؤدي إلى حبس المطر ، وأن ظهور الفاحشة يؤدي إلى انتشار الأمراض المهلكة كالطاعون ، وأن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى يؤدي إلى تفرق الأمة وظهور العداء والقتال بين فئاتها .

ثالثًا : كان عبد الرحمن بن عوف مطبقا للسنة في دعوة الكفار إلى الإسلام فلم يتعجل بقتالهم وكان من نتائج ذلك أن دخل في الإسلام سيدهم الأصبغ بن عمرو الكلبي ، ودخول الزعماء في الإسلام يعني انتشار الإسلام في أقوامهم .

لقد كانت هذه السرية دليلا على أن المسلمين في العهد النبوي لم يكونوا يتعطشون لسفك الدماء ولم تكن تُغْريهم قوتهم وعددهم - كما في هذه السرية - إلى الطمع في أموال الأعداء ، بل كان المطلب الأول الذي استمروا يلحُّون عليه في كل مواجهة بينهم وبين أعدائهم أن يقوموا بدعوة الأعداء إلى الإسلام فإذا أسلموا عصموا دماءهم وأموالهم وأصبحوا في الحقوق كأفراد المسلمين .

وجاء في آخر هذا الخبر أن عبد الرحمن بن عوف كتب لرسول الله ﷺ يستأذنه في الزواج من إحدى نساء بني كلب وأن رسول الله ﷺ وجهه إلى أن يتزوج بنت سيدهم ، وجاء في رواية أخرى ذكرها الواقدي أن رسول الله ﷺ وجه عبد الرحمن بن عوف إلى الزواج ببنت سيد

الأعـداء إذا اسـتـجابـوا لدعـوته ، وهذا هو الظاهر الذي اعـتـمـده بعض المحققين كالإمام الذهبي .

وقد كـان النبي ﷺ يحـرص على أن يتزوج هـو وقـادته ببنات سـادة القبائل لأن في ذلك كـسبا كـبيراً لدعـوة الإسلام ، حيث تكون المصـاهرة سببا في القرب وامتصاص أسباب العداء ثم الدخول في الإسلام .

* * *

٣ – سرية بني سعد بفَدَك [1]-

ذكر الواقدي أنها كانت في شعبان سنة ست وقال : حدثني عبد الله بن جعفر ، عن يعقوب عن عُتبة ، قال : بعث رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام في مائة رجل إلى حَيّ سعد بفَدَك ، وبلغ رسول الله ﷺ أنّ لهم جمعًا يُريدون أن يُمدّوا يهودَ خَيْبَر ، فسار الليلَ وكمن النهارَ حتى انتهى إلى الهَمَج [2] ، فأصاب عينًا فقال : ما أنت ؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد ؟ قال : لاعلم لي به . فشدّوا عليه فأقر أنه عينٌ لهم بعثوه إلى خَيْبَر ، يعرض على يهود خَيْبَر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويَقْدَمون عليهم ، فقالوا له : فأين القوم ؟ قال : تركتُهم وقد تجمّع منهم مائتا رجل ، ورأسهم وبَر بن عُلَيم . قالوا : فسرْ بنا حتى تدلّنا . قال : على أن تُؤمّنوني ! قالوا : إن دللتَنا عليهم و على سَرْحهم أمّنّاك ، وإلا فلا أمان لك . قال: فذاك ! فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساء ظنُّهم به ، وأوفى بهم على فَدافد وآكام ، ثم أفضى بهم إلى سهولة فإذا نَعَمٌ كثيرٌ وشاءٌ ، فقال : هذا نَعَمهم وشاءُهم . فأغاروا عليه فضمّوا النَّعَمَ والشاءَ . قال : أرسلوني ! قالوا : لا حتى نأمن الطلب ! ونذر بهم الراعي رعاءَ الغنم والشاء ، فهربوا إلى جمعهم فحذّروهم ، فتفرقوا وهربوا ، فقال الدليل : عَلامَ تحبسني ؟ قد تفرقت الأعراب وأنذرهم الرعاء . قال عليٌّ عليه السلام : لم نبلغ معسكرهم ، فانتهى بهم إليه فلم يَر أحدًا ، فأرسلوه وساقوا النَّعَم والشاء ، النَّعم خمسمائة بعير ، وألفا شاة .

---

(١) فدك : قرية قريبة من خيبر بينها وبين المدينة ست ليال . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٢٥٥)

(٢) الهمج : ماء بين خيبر وفدك . (طبقات ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦٥) .

ثم قال الواقدي : حدثني أُبَير بن العَلاء ، عن عيسى بن عَليلة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : إني لَبوادي الهَمَج إلى بَديع [١]، ما شعرتُ إلا ببني سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون ، فقلت : ما دَهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وَبر بن عُلَيم ، فقلت : ما هذا المسير ؟ قال : الشرّ ، سارت إلينا جموع محمد وما لاطاقة لنا به ، قبل أن نأخذ للحرب أُهْبَتَها ، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خَيْبر ، فأخبرهم خبرنا وهو صنع بنا ما صنع . قلت : ومَن هو ؟ قال : ابن أخي ، وما كنا نعدّ في العرب فتىً واحدًا أجمع قلب منه . فقلت : إني أرى أمرَ محمّد أمرًا قد أمن وغلظ ، أوقع بقُرَيش فصنع بهم ما صنع ، ثم أوقع بأهل الحصون بيَثْرب ، قَيْنُقاع وبني النضير وقُرَيْظة ، وهو سائر إلى هؤلاء بَخْيبر . فقال لي وَبر : لاتخش ذلك ! إن بها رجالاً ، وحصونا منيعة ، وماءً واتنًا[٢]، لادنا منهم محمد أبدًا ، وما أحراهم أن يغزوه في عُقر داره . فقلت : وترى ذلك ؟ قال : هو الرأي لهم . فمكث علي عليه السلام ثلاثًا ثم قسم الغنائم وعزل الخُمُس وصفىّ النبي ﷺ لَقوحًا تُدْعى الحَفدَة قدم بها[٣] .

وأشار ابن إسحاق إلى هذه الغزو ة وذكر قائدها [٤] .

في هذا الخبر مثلٌ من خبرة النبي ﷺ الحربية ودقة رصده لأعدائه ،

(١) بديع : أرض من فدك ، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن المغيرة المخزومي . (معجم ما استعجم ، ص ١٤٤) .

(٢) وتن الماء ، أي دام ولم ينقطع . (الصحاح ، ص ٢٢١٢) .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٥٦٢ والتعليقات من هامش المغازي .

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٧١

فقد علم عن تحركات بني سعد بفدك التي أرادو بها إمداد يهود خيبر الذين قد عزموا على غزو المدينة ، فأرسل هذه السرية بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لتفريق جمعهم والقضاء على قوتهم قبل أن ينالوا مقصدهم .

وقد نجح علي ومن معه رضي الله عنهم في تفريق جمعهم وإرهابهم وشلّ قوتهم بما غنموه من أموالهم التي يستعينون بها في الحرب .

وهكذا يكون التخطيط الحربي السليم ، وذلك بقطع الطريق على تجمع الأعداء الكبير حتى لايتقوى بالإمدادات الحربية الصغيرة .

* * *

٤ – مواقف في سرية بني فزارة –

أخرج الإمام مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : غزونا فزارة وعلينا أبو بكر . أمَّرهُ رسولُ الله ﷺ علينا . فلما كان بيننا وبين الماء ساعة ، أمرنا أبو بكر فَعَرَّسْنا[1] . ثم شنَّ الغَارة . فوردَ الماء . فقتل من قتل عليه ، وسبى .

وأنظرُ إلى عُنُق من الناس [2] . فيهم الذراري . فخشيتُ أن يسبقوني إلى الجبل . فرميتُ بسهم بينهم وبين الجبل . فلما رأوا السهم وقفوا . فجئتُ بهم أسُوقهم . وفيهمُ امرأةٌ من بني فزارة . عليها قَشعٌ من أدَم[3] . (قال : القَشعُ النِّطعُ) معها ابنةٌ لها من أحسن العرب . فسُقتهم حتى أتيتُ بهم أبا بكر . فنفلني أبو بكر ابنتها .

فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا . فلقيني رسول الله ﷺ في السوق . فقال : « ياسلمةُ ! هَبْ لي المرأةَ » فقُلتُ : يارسول الله ! والله! لقد أعجبتني . وما كشفتُ لها ثوبا . ثم لقيني رسولُ الله ﷺ من الغد في السوق . فقال لي : « ياسلمة ! هب لي المرأةَ . للَّه أبُوك[4] ! » فقلتُ : هي لك . يارسول الله ! فو الله ! ما كشفت لها ثوبا . فبعث بها رسولُ الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناسًا من المسلمين ، كانوا أسرُوا بمكة[5] .

---

(١) أي نزلنا آخر الليل .

(٢) يعني جماعة .

(٣) أي جلد .

(٤) كلمة مدح مثل لله درك .

(٥) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٥٥ (٣/ ١٣٧٥)

وأخرج خبر هذه السرية الإمام أحمد من حديث سلمة رضي الله عنه وذكر مثل رواية مسلم [١].

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : اهتمام النبي ﷺ بأسرى المسلمين وسعيه في فكاكهم ، فقد طلب من سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن يهب له تلك المرأة التي وقعت في نصيبه وألحَّ عليه في ذلك ليفدي به ناسا من المسلمين أُسروا بمكة .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تقدم بعضها تدل على عظمة اهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين وأنه كان يعيش قضاياهم بأحاسيسه وينتظر الفرص المناسبة لإنقاذهم وحل قضاياهم .

ثانيًا : بطولة سلمة بن الأكوع وجهوده الكبيرة في احتواء المعركة ، من سرعة الحركة ، والمغامرة بالنفس ، واقتناص الفرص المناسبة للسيطرة على الموقف ، فلقد كان لمجهوده الحربي الكبير أثر واضح في كسب تلك المعركة لصالح المسلمين .

ثالثًا : موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان أميرا على تلك السرية في تقدير أهل الفضل ، حيث منح سلمة بن الأكوع تلك الفتاة الجميلة التي كانت في السبى مكافأة له على ما بذل من جهد مشكور في النكاية بالأعداء وإنزال الهزيمة بهم .

* * *

---

(١) الفتح الرباني ٢١/١٢٨

٥ - مواقف في الصبر والسخاء وكرامة من الله تعالى لأوليائه - (سرية العنبر)

أخرج الإمامان البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . قال : بعثنا رسولُ الله ﷺ وأمَّر علينا أبا عُبيدة . نتلقَّى عيرًا [١] لقُريش . وزوَّدنا جرابًا [٢] من تمر لم يجدْ لنا غيرهُ . فكان أبُو عبيدة يُعطينا تمرة تمرةً . قال فقلت : كيف كُنتم تصنعون بها ؟ قال : نمصُّها كما يَمصُّ الصَّبيُّ . ثُمَّ نشربُ عليها من الماء . فتكفينا يومنا إلى الليل . وكُنا نضربُ بعصينا الخَبَطَ [٣] . ثم نبُلُّهُ بالماء فنأكله .

قال وانطلقنا على ساحل البحر . فَرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب [٤] الضخم . فأتيناهُ فإذا هي دابةٌ تُدعَى العنْبر . قال : قال أبُو عبيدة : ميتةٌ . ثم قال : لا . بل نحنُ رُسُلُ رسول الله ﷺ . وفي سبيل الله . وقد اضطررتم فكلوا . قال : فأقمنا عليه شهرًا . ونحن ثلاث مائة حتى سَمِنَّا . قال : ولقد رأيتُنا نغترف من وقب [٥] عينه بالقلال [٦] الدهن ونقتطع منه الفِدَرَ [٧] كَقَدْر الثور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً . فأقعدهم في وقب عينه . وأخذ ضلعًا من أضلاعه . فأقامها .

---

(١) عيرا : العير هي الإبل التي تحمل الطعام وغيره .

(٢) جرابا : بكسر الجيم وهو وعاء من جلد .

(٣) الخَبَط : ورق السَّلَم .

(٤) الكثيب : هو الرمل المستطيل المحدودب .

(٥) وقب : هو داخل عينه ونقرتها .

(٦) بالقلال : جمع قُلَّة . وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه ، أي يحملها .

(٧) الفدر : هي القِطع .

ثـم رَحَـل [1] أعظم بعيـر مـعنا . فـمـر من تحـتـهـا . وتزودنا من لحـمـه وشائق [2] .

فلما قـدمنا المدينة أتينا رسولَ الله ﷺ فذكـرنا ذلك له . فقـال « هو رزق أخرجهُ الله لكم . فهل معكم من لحمه شيءٌ فتطعمُونا ؟» قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منهُ فأكلهُ [3] .

وجاء في رواية الإمام البخاري « قال جابر : وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه » .

قال البخاري : وكان عمرو [4] يقول « أخبرنا أبو صالح [5] أن قيس ابن سعد قال لأبيه : كنت في الجيش فجاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت قال : ثم جاعـوا ، قـال : انحـر ، قـال : نحـرت ، قـال : ثم جاعـوا، قال : انحر ، قال : نحرت ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال نُهيت» .

وفي رواية أخرى للبخاري « فخرجنا وكنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجُمع ، فكان مزودَيْ تمر ، فكان يقوتنا كل

---

(١) أي جعل عليه رحلا .

(٢)هو اللحم الذي يطبخ قليلا ويجفف ويحمل في الأسفار .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الصيد ، حديث رقم ١٩٣٥ (ص ١٥٣٥)

صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٦١ (٨/ ٧٧) والتعليقات من هامش صحيح مسلم .

(٤) يعني ابن دينار .

(٥) هو ذكوان السمان ، كما ذكر الحافظ ابن حجر (الفتح ٨/ ٨١)

يوم قليلا قليلا حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة ، فقلت[1] ، ماتغني عنكم تمرة ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ »[2] .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمنها :

أولاً : صبر الصحابة رضي الله عنهم البليغ على الجوع حيث بلغ بهم الجوع إلى حد الاكتفاء بتمرة واحدة في اليوم ، ثم فقدوا الأكل كله فصاروا يعيشون على أوراق الشجر ، وكان الشجر الموجود من النوع الخشن وهو الخَبَط حتى قرح أفواههم ، ولغرابة ذلك وكون الإنسان من النادر جدًا أن يأكل من ذلك الشجر سميت هذه السرية سرية الخبط .

إن أولئك الصحب الكرام مع ما تعرضوا له من هذا البلاء الشديد لم يكن لهم أي تفكير في العودة إلى المدينة قبل أداء مهمتهم ، كما أنه لم يُذكر عنهم أيُّ تضجُّر أو تسخُّط على قائدهم ، وهذا دليل على عظمتهم وأنهم رجال تمَّ إعدادهم إعدادا تربويًا عاليا لتحمُّل جميع الشدائد التي يمكن أن يطيقها البشر ولو بمشقة كبيرة .

ثانيًا : موقف جليل لأمير السرية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ، فحينما كان يسير مع جيشه فني زادهم فأمر بجمع الطعام الذي مع أفراد الجيش ، فكان يعطيهم منه قليلا قليلا بقدر القوت الضروري حتى وصل به الحال إلى إعطاء كل واحد منهم تمرة في اليوم ، وهذا دليل على حزمه وحسن إدارته وسياسته ، إذ أنه لو تركهم وشأنهم لانتهى زادهم في وقت قليل وأصبحوا معرَّضين لخطر الهلاك .

---

(١) القائل هو وهب بن كيسان الراوي عن جابر رضي الله عنه .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٦٠ (٨/ ٧٧)

ثالثًا : موقف في السخاء والشهامة يقدِّمه الكريم بن الكريم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما ، فحينما فني زاد القوم وصاروا يأكلون ورق الشجر أبت شهامة قيس وأَرْيَحيَّته أن يترك إخوانه في تلك الحال من المسغبة وهو قادر على إنقاذ الموقف فصار يبحث عن رجل من العرب يبيعه إبلا بثمنها تمرا في المدينة ، وعثر على رجل من جهينة يعرف أباه[1] فباعه تسع إبل بتمر يتقاضاه الجهني في المدينة ، وقد نحر قيس كل يوم ثلاثا من الإبل ، وأراد أن يستمر في الشراء والنحر فأبى عليه أبو عبيدة ، وقد استسلم لأمر الأمير مع رغبته الشديدة في الاستمرار في نحر الإبل لأنه سليل الكرام ونشأ في بيت كرم فهو لايهدأ ولايستريح حتى يُسعد الناس بما له .

وفي المحاورة التي جرت بن قيس وأبيه سعد يتبين كرم سعد الفياض .

وجاء في رواية للواقدي عن عمر بن عثمان بن شجاع قال : لما قدم الأعرابي على سعد بن عبادة قال : يا أبا ثابت ! والله ، ما مثل ابنك صنعت ولاتركت بغير مال ، فابنك سيد من سادة قومه ، نهاني الأمير أن أن أبيعه . قلت : لمَ ؟ قال : لا مال له ! فلما انتسب إليك عرفته فتقدّمت لما عرفتُ أنك تسمو على معالي الأخلاق وجسيمها ، وأنك غير مُذمّ بمن لا معرفة له لديك . قال : فأعطى ابنه يومئذ أموالاً عظامًا [2] .

رابعًا : في هذا الخبر مثل من نزاهة الصحابة وعفتهم عن الحرام ،

---

(1) مغازي الواقدي ٢/ ٥٧٥

(2) مغازي الواقدي ٢/ ٧٧٧

فقد كان بإمكانهم أن يأخذوا الإبل من ذلك الراعي أو من غيره بالقوة ، ولكنهم يعلمون أن ذلك لايحل لهم ، وهم إنما أسلموا وخرجوا للجهاد طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ولهذا كان الناس الذين لم يدخلوا معهم في الحرب في غاية الأمن والسلام معهم ، وهذا من الفروق الواضحة بين المجاهدين من المسلمين والمحاربين من غيرهم .

خامسًا : في هذا الخبر عبرة عظيمة وذلك فيما أجراه الله تعالى من كرامة لأوليائه حيث أخرج لهم من البحر ذلك الحوت العظيم الذي يشبه الكثيب من الرمل ، وقد جاء في هذا الخبر من تعظيم خلقته ما يدل على أن خروج مثل ذلك الحوت العظيم غير مألوف عند العرب ، وقد أنقذ الله جل وعلا به تلك الفئة المؤمنة من مجاعة مهلكة ، والكرامات يجريها الله تعالى لأوليائه لعدة مقاصد ، منها إنقاذهم من مشقة وقعوا فيها .

* * *

٦ – مواقف وعبر في صلح الحديبية –

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث عُروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان – يُصَدِّقُ كلٌّ واحد منهما حديث صاحبه – قالا « خرج رسولُ الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كان ببعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فُخذوا ذات اليمين . فو الله ما شَعرَ بهم خالدٌ حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركُضُ نذيرًا لقُريش .

وسار النبي ﷺ ، حتى إذا كان بالثنية التي يُهبط عليهم منها بركت به راحلتُه ، فقال الناس : حَل حَل . فألَحَّتْ . فقالوا خَلأت القَصواء[1] . فقال النبي ﷺ : ما خَلأت القَصواء وماذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خُطة يعظمون فيها حرمات الله [2] إلا أعطيتهم إياها . ثم زجرها فوثبت .

قال فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[3] قليل الماء يتبرضهُ الناس تبرُّضًا[4] ، فلم يُلبِّثْه الناسُ حتى نزحوهُ ، وشُكيَ إلى رسول الله ﷺ العطشُ ، فانتزعَ سَهمًا من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوهُ فيه ، فو الله ما زال يَجيشُ لهم بالرِّيِّ حتى صَدروا عنه .

فبينما هم كذلك ، إذ جاءَ بُدَيلُ بن ورقاء الخزاعيُّ في نفر من قومه

---

(١) خلأت أي حرنت وأبت أن تسير، والقصواء اسم ناقة النبي ﷺ .

(٢) يعني ترك القتال في الحرم .

(٣) الثمد هو نبع الماء من أثر المطر .

(٤) أي يأخذونه قليلا قليلا لقلته .

من خزاعة - وكانوا عَيْبَةَ نُصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة[١]- فقال : إني تركتُ كعب بن لُؤي وعامر بن لؤي[٢] نزلوا أعداد مياه الحديبية ، ومعهم العُوذ المطافيلُ[٣] وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت . فقال رسولُ الله ﷺ : إنَّا لم نجئ لقتال أحد ، ولكنا جئنا مُعتمرين ، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرَّتْ بهم ، فإن شاءوا مادَدْتُهم مدةً ويخلُّوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناسُ فعلوا ، وإلا فقد جَمُّوا . وإن هم أبوا فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[٤] ، ولينُفذنَّ اللهُ أمره . فقال بُدَيلٌ : سأبلغهم ما تقولُ .

قال فانطلق حتى أتى قريشًا قال : إنا جئناكم من هذا الرجل ، وسمعناهُ يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سُفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعتهُ يقول . قال سمعته يقول كذا وكذا . فحدثهم بما قال النبي ﷺ . فقام عُروة بن مسعود فقال : أي قوم ، ألستم بالوالد؟ قالوا : بلى . قال : أولستُ بالولد ؟ قالوا : بلى . قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا . قال ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ، فلما بلَّحوا عليَّ[٥] جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد

(١) أي موضع نصحه، والعيبة ماتوضع فيها الثياب لحفظها.

(٢) هم قريش الذين في مكة.

(٣) يعني النوق التي معها أطفالها، أي أنهم سيتزودون بالحليب ولن يعودوا إلى مكة.

(٤) السالفة هي صفحة العنق والمراد القتل.

(٥) أي امتنعوا.

عرض عليكم خُطة رُشد اقبلوها ودعوني آته . قالوا ائْته .

فأتاهُ ، فجعل يُكلمُ النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل . فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرأيت إن استأصلت أمرَ قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهلهُ قبلك ؟ وإن تكن الاخرى ، فإني والله لا أرى وُجوهًا ، وإني لأرى أشوابًا[1] من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك .

فقال له أبو بكر : امصص بَظْرَ اللات[2] ، أنحنُ نفرُّ عنه وندعُهُ؟ فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده ، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزك بها لأجبتك . قال وجعل يُكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته ، والمغيرةُ بن شُعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف[3] وقال له : أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، . فقال : أي غُدَر ، ألستُ أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم . فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبلُ وأما المال فلست منه في شيء .

ثم إن عُروة جعل يرمقُ أصحاب النبي ﷺ بعينيه . قال : فو الله

---

(١)أي أخلاطا من أجناس شتى.

(٢) كلمة سب عند العرب وكانوا ينسبون ذلك إلى الأم لكن أبا بكر نسب ذلك إلى اللات صنم ثقيف التي يعظمونها إمعانا منه في تحقيره والسخرية منه، وفي هذا دلالة على جواز الإقذاع مع الكفار في الكلام إذا كان منهم تطاول لأن النبي ﷺ لم ينكر على أبي بكر ذلك .

(٣) هو ما يكون أسفل قراب السيف من فضة وغيرها .

ماتنخَّم رسولُ الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادُوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيما له .

فرجع عُروة إلى أصحابه فقال : أي قوم ، والله لقد وفدتُ على الملوك ، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيتُ مَليكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحابُ محمد ﷺ محمداً ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ومايُحدُّون إليه النظر تعظيمًا له . وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بني كنانة[1] : دعوني آته ، فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسولُ الله ﷺ : هذا فلانٌ ، وهو من قوم يعظمون البُدْن ، فابعثوها له فبُعثَتْ له ، واستقبله الناس يُلبُّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت . فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البُدن قد قُلِّدتْ وأُشْعِرَتْ ، فما أرى أن يُصدُّوا عن البيت .

فقام رجلٌ منهم يقالُ له مكْرَزُ بنُ حفص فقال : دعوني آته . فقالوا : ائْته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مكرزٌ ، وهو رجل فاجر . فجعل يكلم النبي ﷺ . فبينما هو يكلمهُ إذ جاء سُهيلُ بن عمرو .

---

(١) جاء في رواية الإمام أحمد أن اسمه الحُلَيس بن علقمة الكناني وهو يومئذ سيد الأحابيش
-مسند أحمد ٤/ ٣٣٤-

قال معمرٌ : فأخبرني أيوبُ عن عكرمة أنه لما جاء سُهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : قد سهل لكم من أمركم .

قال معمرٌ قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا . فدَعا النبي ﷺ الكاتب[1] ، فقال النبي ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيلٌ : أما « الرحمنُ » فو الله ما أدري ماهي ، ولكن أكتب « باسمك اللهم » كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لانكتبها إلا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال النبي ﷺ : اكتب « باسمك اللهم » . ثم قال « هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله » فقال سهيلٌ : والله لو كنا نعلم أنك رسولُ الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب « محمد بن عبد الله » ، فقال النبي ﷺ : والله إني لرسولُ الله وإن كذبتموني ، اكتب « محمد بن عبد الله »[2] قال الزهري : وذلك لقوله « لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » فقال له النبي ﷺ : على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لاتتحدث العربُ أنا أخذْنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيلٌ : وعلى أنه لايأتيك منا رجلٌ - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا . قال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا ؟ [3] فبينما هم

---

(١) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما جاء في رواية ابن إسحاق .

(٢) جاء في رواية للإمام مسلم من حديث البراء رضي الله عنه « فأمر عليا أن يمحاها فقال علي : لا والله لا أمحاها ، فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها فمحاها وكتب : ابن عبد الله » - صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٨٣ (ص ١٤١٠) -

(٣) جاء في رواية للإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه « فاشترطوا على =

كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يامحمد أولُ من أقاضيك عليه أن تردَّهُ إلي . فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعدُ . قال : فو الله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا . قال النبي ﷺ : فأجزه لي ، قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل . قال مكرزٌ : بل قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عُذِّبَ عذابًا شديدًا في الله .

قال فقال عمر بن الخطاب : فأتيتُ نبي الله ﷺ فقلت : ألستَ نبي الله حقًا ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال : بلى . قلت : فلمَ نعطي الدَّنية في ديننا إذًا ؟ قال : إني رسولُ الله ولستُ أعصيه ، وهو ناصري . قلت : أوَ ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى فاخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال قلت : لا . قال فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به .

قال : فأتيت أبا بكر فقلتُ : يا أبا بكر ، أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال : بلى . قلتُ : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلتُ : فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ﷺ ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه فو الله إنه

= النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم ومن جاءكم منا رددتموه إلينا فقالوا : يارسول الله أنكتب هذا ؟ قال : نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجا ومخرجا » . صحيح مسلم / الجهاد والسير ، رقم ١٧٨٤ (ص ١٤١١) .

على الحق . قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ومطوِّف به . قال الزهري قال عمر : فعملتُ لذلك أعمالاً[(١)].

قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . قال فو الله ما قام منهم رجلٌ ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يانبي الله أتحبُّ ذلك ؟ اخرج ، ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يُكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحرَ بُدْنهُ ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضًا ، حتى كاد بعضهم يقتلُ بعضا غمًّا [(٢)] [(٣)] .

---

(١) أي عمل لذلك أعمالاً صالحة لتكفِّر ما رآه ذنبا من مراجعته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء في رواية ابن إسحاق : أن عمر رضي الله عنه قال : مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق ، من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرا .

(٢) قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل أنها فهمت عن الصحابة أنه احتمل عندهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذاً بالرخصة في حقهم وأنه هو يستمر على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حق نفسه ، فأشارت عليه أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم صواب ما أشارت به ففعله ، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به إذ لم يبق بعد ذلك غاية تنتظر - الفتح ٨/ ٣٤٧- .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، رقم ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ ، (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٣) .

وأخرجه الإمام أحمد بهذا الإسناد وذكر نحوه - مسند أحمد -٤/ ٣٢٢ - ٣٢٦ - .

وأخرجه الإمام مسلم في عدة روايات مختصرة - صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٧٨٣ - ١٧٨٦ (من ١٤٠٩ - ١٤١٣) .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث الزهري وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٣/ ٤١٥ - ٤٢٠ .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : في حبس ناقة رسول الله ﷺ عن المسير عبرة عظيمة في تعظيم حرمات الحرم ، فقد شاء الله تعالى أن ينبِّه رسوله ﷺ إلى تفادي القتال في الحرم ولو صُدَّ عن البيت وعاد هو وأصحابه بغير عمرة تعظيمًا للحرم ، ولذلك قال ﷺ « والذي نفسي بيده لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

ومن ذلك عفوه ﷺ عن فرقة من المشركين حاولوا الهجوم على المسلمين فأخذوهم أسرى ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين . يريدون غرَّة النبي ﷺ وأصحابه . فأخذهم سَلَما فاستحياهم . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ [الفتح : ٢٤] (١) .

ثانيًا : فيه معجزة للنبي ﷺ وذلك في جريان الماء من النبع الذي جف ماؤه حينما أمر ﷺ بوضع سهم من كنانته بذلك النبع فكفى الجيش حتى صدروا عن ذلك المكان وعددهم ألف وخمسمائة تقريبا .

ثالثًا : موقف في الشجاعة والحزم من رسول الله ﷺ وذلك حينما عرض على قريش خطة الصلح ، وجعل البديل منها إن أبَوْا ذلك الجهاد القوي المتواصل الذي عبر عنه بقوله « وإن هم أبوا فو الذي نفسي بيده لأقاتلنَّهُم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولَيُنفذن الله أمره » .

---

(١) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٨٠٨ ، (ص ١٤٤٢) .

وهذا الكلام القوي والوعيد الشديد لا شك أنه كان له أثر في قريش حتى قبلوا بالصلح الذي لم يكن من صالحهم كما سيأتي .

رابعًا : في هذا الخبر بيان لشدة حب الصحابة لرسول الله ﷺ واحترامهم له وتأدبهم معه وتبركهم به ، ولقد أذهلت هذه المظاهر عروة بن مسعود الثقفي فعاد يحكيها لقريش مع أن حكايتها مما يغيظهم ولكن قوة التأثر بما شاهد غلبت على مداراتهم فنطق بذلك الكلام الذي يعتبر عاملا من عوامل الانهزام النفسي لدى الكفار ، فإن الزعيم الذي يعامله أصحابه هذه المعاملة لايتوقع منهم أن يفروا ويتركوه ، وإنما المتوقع أن يثبتوا معه وأن يحموه ولو قتلوا بين يديه .

خامسًا : إن من عوامل كسب القضية المتنازع عليها الظهور بالمظهر الذي يجعل الخصم يتعاطف مع خصمه ويتحول إلى مدافع عنه أمام قومه، وهكذا أمر النبي ﷺ أصحابه أن يستقبلوا الحُلَيس بن علقمة الكناني بالمظهر الذي يفرض عليه اعتقاد كون المسلمين إنما جاؤوا للعمرة حيث أرسلوا أمامه الإبل المعدَّة للهدْي وهو ممن يعظمون مشاعر الحج والعمرة ، وقد أثَّر عليه هذا المنظر فرجع مُنكرًا على قريش وقوفها في وجه المسلمين وصدَّهم عن البيت الذي جاؤوا مُعَظِّمين له .

وقد جاء ذلك واضحا في رواية ابن إسحاق وفيها : فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدْي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ

إعظاما لما رأى ، فقال لهم ذلك ، فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابي لاعلم لك .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أنَّ الحليس غضب عند ذلك وقال : يامعشر قريش ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظما له : والذي نفس الحليس بيده لتخلُّنَّ بين محمد وما جاء له أو لأنْفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، قال : فقالوا : مَهْ ، كُفَّ عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[1] .

وهكذا كان هذا التصرف من رسول الله ﷺ مُقنعا للحليس كي يتحول عن رأيه ويقف في صف المسلمين ويهدد قريشا بأن يواجههم بالحرب إن هم صدوا ا لمسلمين وقد جاؤوا معظمين للبيت .

ولقد تحول رأي زعماء قريش بعد هذا الموقف من الرأي المتصلب نحو صدِّ المسلمين بالقوة إلى نوع من المساومات السياسية كما في هذه الرواية حيث قالوا : كفَّ عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ، يعني أننا لن نصد المسلمين بالقوة عن الوصول إلى البيت ولكننا نريد أن نغتنم هذه الفرصة لنكسب هذه القضية أمام العرب .

سادسًا : جاء في رواية ابن إسحاق خبر بيعة الرضوان وبيان سببها ، يقول ابن إسحاق : فدعا رسولُ الله ﷺ عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يُخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ، ومعظما لحرمته .

قال : فخرج عثمانُ إلى مكة ، فلقيه أبانُ بن سعيد بن العاص حين

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٠٧ - ٤٠٨ .

دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطُوف بالبيت فطفْ ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قُتل .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ ، قال حين بلغه أن عثمان قد قُتل : لانبرحُ حتى نُناجز القوم ، فدعا رسولُ الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسولُ الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على أن لانفرّ (١) .

وهكذا تمت بيعة الرضوان على مناجزة الكفار وقد اختلفت ألفاظ الصحابة رضي الله عنهم في بيان صيغة البيعة ، فروَى الإمام البخاري عن يزيد بن أبي عُبيد قال قلت لسلمة بن الأكوع : على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت (٢) .

وجاء في رواية لمسلم من حديث معقل بن يسار أنه قال : « لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لانفرّ » (٣) وكذلك جاء في رواية ابن إسحاق هذه من حديث جابر بن عبد الله .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤١٢ - ٤١٣ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٦٩ (٧/ ٤٤٩) .

(٣) صحيح مسلم ، الإمارة ، رقم ١٨٥٨ (٣/ ١٤٨٥) .

والذي يظهر أنه لايترتب على هذا الخلاف تغاير في المدلول لأن الذين عبّروا بعدم الفرار رووا ما تم من ألفاظ البيعة ، والذين عبّروا بالبيعة على الموت قد اهتموا ببيان مضمون البيعة لأن من بايع على عدم الفرار فقد وطّن نفسه على الموت في سبيل الله تعالى .

وإنه لموقف عظيم لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم حيث أجمعوا جميعا على هذه البيعة وباعوا أنفسهم رخيصة لله عز وجل ، ولم يتردد منهم أحد غير رجل واحد من المنافقين لم يُرد الله له أن يفوز برضوانه كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي الزبير أنه سمع جابرا يُسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة ومائة فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، فبايعناه غير جَدِّ بن قيس الأنصاري ، اختبأ تحت بطن بعيره [1] .

وقد سجل الله سبحانه وتعالى رضوانه عن هؤلاء ا لمؤمنين الذين أقدموا على هذه البيعة مما يدل على صدقهم وإخلاصهم جميعا وذلك بقوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح : ٢٧] .

ولعله يندر أن يوجد في التاريخ جيش بأكمله يبايعون على الموت جميعا ما عدا رجل واحد ، مما يشهد شهادة صدق أن الصحابة هم أفضل هذه الأمة وقُدوتُها في الخير والرشاد .

سابعًا : ما جرى في هذا الخبر من استسلام المؤمنين لأمر الله تعالى

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة رقم ١٨٥٦ (٣/ ١٤٨٣) .

ورسوله ﷺ في قضية الصلح الذي هو في الظاهر إجحاف بيِّن بالمسلمين حيث رفض سهيل بن عمرو مندوب قريش أن يُكتب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم ، ورفض أن يُكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، كما رفض الموافقة على دخول المسلمين مكة وطوافهم بالبيت في عامهم ذلك ، وكان من البنود الجائرة في هذا الصلح ما جاء في قول سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك - إلاَّ رددته إلينا . ولذلك قال المسلمون : سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ وزاد من حرج رسول الله ﷺ مجيء أبي جندل رضي الله عنه يرسف بقيوده وإصرار أبيه سهيل بن عمرو على ردِّه إلى مكة حيث تم الصلح .

ولهذا وقع المسلمون في حيرة عظيمة وأبت نفوس كثير منهم قبول هذا الصلح واشتاقوا إلى مناجزة أعدائهم والوصول إلى البيت ولو بالقوة ، حتى قال عمر رضي الله عنه في محاورة له مع رسول الله ﷺ : «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال عمر : فلمَ نُعْط الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» .

وكان أبو بكر رضي الله عنه في غاية اليقين وقمة الإيمان والاستسلام حيث كان جوابه لعمر رضي الله عنه كجواب رسول الله ﷺ .

وبعدما تبين للصحابة رضي الله عنهم أن هذا هو أمر الله تعالى سلَّموا جميعا واطمأنوا لأمر لم تدرك عقولهم كل تفاصيله والغاية منه ، ولكنه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ وهم يؤمنون جميعا بقوله تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] فسارعوا جميعا إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بالإحلال من عمرتهم بعدما أحل من عمرته ، ولم ينازعوا فيما بتَّ به من أمر الصلح مع ما فيه في الظاهر من الإجحاف بالمسلمين .

وقد أثنى الله سبحانه على المؤمنين في هذا الموقف وبيَّن امتنانه عليهم بقوله ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ يعني حينما رفضوا كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٦] يعني شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وهكذا امتنَّ الله سبحانه على أوليائه بإنزال السكينة عليهم مرتين : حينما اطمأنت نفوسهم إلى القتال حتى الموت وبايعوا على ذلك لَمَّا كان الأمر يستدعي ذلك وحينما اطمأنت نفوسهم إلى الرضى بالصلح مع ما فيه من شروط جائرة لَمَّا استدعى الأمر ذلك .

ثامنًا : كان صلح الحديبية كسبا عظيما لدعوة الإسلام ، ولقد كان في ظاهره إجحافا بالمسلمين في بعض بنوده ، ولكن نتائجه كانت انتصارا عظيما للإسلام والمسلمين ، وهذا يدل على تفوق النبي ﷺ في التخطيط الإداري والنظر المستقبلي لدولة الإسلام .

وقد سماه الله تعالى فتحا مبينا ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح : ١] مما يدل على أهمية نتائجه لصالح الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام .

وقد أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

قال : « تَعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية » (١) .

ومما يدل على أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية ما أخرجه الشيخان من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه أنه قال بعدما ذكر شيئا من خبر الحديبية : « فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه فقال : يارسول الله أوَ فتح هو ؟ قال : نعم ، فطابت نفسه ورجع » (٢) .

وإنما كان صلح الحديبية فتحا لأن مكة كانت قبله مغلقة أبوابها أمام المؤمنين فلما تم الصلح فُتح باب المعاملة مع المشركين واستطاع المؤمنون أن يدخلوا مكة معتمرين مع رسول الله ﷺ بعد عام من الصلح .

وكانت المدينة مغلقة أمام المشركين من سائر العرب لقلة المؤمنين وكثرة أعدائهم فما كان العرب يُقدمون على الدخول في الإسلام والحالة هذه فلما تم الصلح دخل في الإسلام أضعاف من كانوا دخلوا فيه قبله ، وذلك أن العرب لما تسامعوا بأن محمدا ﷺ قد تصالح مع قريش وَوُضعَت الحرب بينه وبين أكبر اعدائه علموا بذلك عزته وأنهم لاقبَلَ لهم بحربه فأسرعوا إلى الدخول في دينه ، وخصوصا بعدما قضى رسول الله ﷺ على أكبر أعدائه بعد قريش وهم اليهود في خيبر وكان القضاء عليهم من آثار تفرغه ﷺ بعد الصلح ، فلم يبق بعد القضاء عليهم من

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية (فتح الباري ٧/ ٤٤١) . .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد باب رقم ٣٤ (ص ١٤١٢) .

صحيح البخاري ، كتاب الجزية باب رقم ١٨ (فتح الباري ٦/ ٢٨١) .

يحارب الإسلام بقوة وضراوة ، وقد أدرك العرب عزة الإسلام في تلك الفترة فسارعوا إلى الدخول فيه ، وممن أسلم في هذه الفترة رجلان من صناديد قريش هما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما[1]، وقد أصبحا بعد ذلك من أعلام المسلمين وقادتهم .

يقول الزهري : فما فُتحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووَضعَت الحرب وأمنَ الناس بعضهم بعضا والتقوا تفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر [2] .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف واربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف [3] [4] .

* * *

تم بحمد الله

هذا الجزء ويليه الجزء السابع وأوله

(مواقف وعبر بين صلح الحديبية وفتح خيبر)

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٣٥٣ .

(٢) السيرة النبوية ٣/ ٤٢٥ .

(٣) المرجع السابق ٣/ ٤٢٦ .

(٤) عن كتاب « المنافقون في القرآن الكريم » للمؤلف ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع
٨ ش أبو المعالي (المجرزة) الجيزة - ت/ فاكس: ٣٤٧٣٦٩١
١ ش سرجاج من ش الزقازيق (خلف قلعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩